المرأة إلى أين؟



خيرية حسن الزبيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

المرأة... إلى أين؟!

خيرية حسن الزبيدي

المرأة... إلى أين؟!

الرقم الاصطلاحي: ٢٣٣٨,٠٣١
الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-565-1
الرقم الموضوعي: ٣٠١/٢١٠
الموضوع: دراسات إسلامية/مشكلات الحضارة
العنوان: المرأة إلى أين ...؟
التأليف: خيرية حسن الزبيدي
التنفيذ الطباعي: دار الفكر - دمشق
عدد الصفحات: ٢٠٨ ص
قياس الصفحة: ١٤×٢٠ سم
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

توزيع دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
Http://www.fikr.com
e-mail: info@fikr.com

الطبعة الأولى

رجب ١٤٢٧هـ

آب (أغسطس) ٢٠٠٦م

المحتوى

الإهداء إلى:

أمي وأبي

اللذّين تجاوزا الموروث..

فكان النجاح

المقدمة

قضية المرأة هي قضية شائكة ومعقدة، ومن الممكن أيضاً أن تكون بسيطة، وقد لا يكون هناك قضية، كيف ذلك؟ :

هي شائكة ومعقدة حين تغيب الحكمة، وتحل محلها الأنانية والعنجهية. وهي بسيطة حين ينظر إلى علاقة الرجل والمرأة على حقيقتها، علاقة تكاملية، لكلٍ دور يؤديه في هذه الحياة مكملاً دور الآخر، وهي علاقة ليست جافة بل علاقة مودة ورحمة، تضفي الكثير من الجمال على الحياة وتجعلها محتملة، بل ومحببة. والغريب أن يتجاهل الرجل هذه الهبة من أجل أن يظهر بمظهر القوة أو السيطرة، ومن أجل إشباع نزعة الرجولة في داخله، بالرغم من أن الحياة قد منحته الكثير من المساحات لإشباع تلك النزعة، بل يعد اللطف مع النساء والرأفة بهنَّ بحد ذاته رجولة، وفي هذا

الموقف نستحضر قول الرسول الكريم ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»، وفي حديث شريف آخر يقول ﷺ: «رفقاً بالقوارير».

ويقصد بذلك النساء، والقوارير كناية عن حساسية المرأة ورقتها، وفي خطبة الوداع لم ينسَ ﷺ المرأة، وأوصى بها خيراً.

ويأتي رد فعل المرأة على تلك الأنانية ليزيد من حجم المشكلة، ويوصلها أحياناً إلى طريق مسدود.

فهناك من الحركات النسائية التي تطالب بالمساواة المطلقة مع الرجل، متجاهلة دور كل منهما وطبيعته، ومن ثَمَّ تكون هي الخاسر الأول بعد أن تكون قد حررت الرجل من مسؤولياته، بينما هي لا تستطيع التحرر من مسؤولياتها، فأضافت إلى مسؤولياتها مسؤوليات أخرى ترهقها وتفقدها أنوثتها.

وهناك من نصبن العداء للرجل متجاهلاتٍ أن كلاً منهما كائنٌ ناقصٌ دون الآخر.

أما الرجل فكما يبدو لنا فإنه يلعب لعبته ويستعبد المرأة من حيث لا تدري، ويختزل كل مالديها من إمكانات عقلية وعطائية بجسد جميل مغرٍ يدر الأرباح، ولا يهم بعد ذلك

مصيرها أو مصير المجتمع. أما هي وكما نراها فرحة بنظرات الإعجاب، أو هي الشهوة الحيوانية، والشهرة المؤقتة متجاهلة مصيرها، ومتغاضية عن دورها الحقيقي في الحياة وفي المجتمع.

ولا ننسى استغلال الدين من قبل البعض لسلب المرأة حقوقها وجعلها خادماً مطيعاً للرجل، ومن ثم تغدو جاهلة وغير قادرة على بناء جيل واعٍ قادر على تحمل المسؤولية.

إن تخبط المرأة في الدفاع عن حقوقها، واستغلال الرجل لها والهبوط بها إلى الدرك الأسفل، هو ما استحثني على الكتابة عن المرأة.

وكانت البداية مع التاريخ لاستخلاص الأسباب التي أدت إلى تدني منزلة المرأة بعد أن كانت ملكة متوجة على العرش في العصر الأمومي، وأسباب الإنقلاب الذي قام به الرجل ليسلبها عرشها وتاجها.

ثم دور الفلاسفة وعلماء النفس في تعميق تلك النظرة الدونية، بل وتحصينها بحيث تصبح من المسلمات.

ويأتي أيضاً دور حركات التحرر النسائية، ولم ننسَ دور الثورة الاشتراكية ولينين بالتحديد لمحاولاته الجادة لإعلاء مكانة المرأة، ثم نتائج محاولاته.

وأخيراً يأتي دور الشرائع السماوية ممثلة بالإسلام ديناً وليس مجتمعاً، وهل الشريعة السماوية هي التي ظلمت المرأة؟.. أم أن الإنسان هو الذي فسر الشريعة وفق هواه، أو خلط بين الموروث الشعبي والدين، ومن ثم ظلم المرأة؟

أرجو أن أكون قد وفقت في إضافة ما هو جديد في هذه القضية التي كتب فيها الكثير.

وما توفيقي إلا بالله.

ولابدَّ أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من مد لي يد العون في بحثي هذا، وأبدأ بأستاذي الدكتور عماد رشيد الذي شجعني منذ البداية على القيام بالبحث، ثم بنقاشاته التي أفادتني كثيراً، وكذلك شقيقتي حفصة التي كان لها الفضل في تحديد مسار البحث، ثم العزيزة فيروز الناجي التي لم تبخل علي برأي أو كتاب من مكتبتها الزاخرة بالكثير الذي يخص موضوع البحث، ولا أنسى أخي نادر الذي قدم كل مايستطيعه سواء من مراجع كنت بحاجة إليها أو نقاشات كانت مفيدة لبحثي.


المرأة ...
إلى أين

مكانة المرأة عبر التاريخ

• العصر الأمومي

عندما أبدع الخالق الإنسان وهبه الكثير من القدرات، وجعله سيداً لهذه الأرض، يستكشف أسرارها ويقوم بإعمارها. والإنسان هو المرأة والرجل، كلٌ منهما يكمل الآخر، كلٌ بحاجه إلى الآخر وسكناً له. ومع تمتع الرجل بالقوة البدنية التي جعلته موكلاً بالأعمال الشاقة، وحامياً للمجتمع من الأخطار، إلا أن الخالق أودع سر الحياة بالمرأة، وجعلها السبب المباشر للتكاثر واستمرار الحياة، فظهر دورها طاغياً في زمن كانت فيه القوة الحقيقية هي القوة البشرية، بالإضافة إلى دورها في رعاية أسرتها ومشاركتها في بناء الحياة، بل أكثر من ذلك استدل العلماء على أن للمرأة

دوراً باكتشاف الزراعة التي أدت إلى الاستقرار، وكانت بداية لبناء الحضارات، بعد أن كان التنقل بحثاً عن الكلأ والماء سمة تلك المجتمعات، فهذه الخصائص الإنسانية والروحية والقدرات الخلاقة التي تمتعت بها المرأة، جعلتها جديرة باستلام القيادة، وهذا ما حدا بالرجل أن يفعل ذلك، وليس ذلك عن ضعف منه ولا خنوع بل تقديرٌ وإجلالٌ لعطاءاتها "فالجسد الذي يهب من ظلماته الحياة ويغذيها ويرعاها، هو الذي يمد سلطانه أيضاً إلى التربة فيضرم فيها جذوة الخصوبة"(١).

وتوحدت المرأة مع إيقاع الطبيعة فكانت أنانا السومرية، وعشتار البابلية، وإيزيس المصرية، وديميتر الإغريقية، وفينوس الرومانية وغيرهن الكثير، ربات للخصب والحياه، آلهة مقدسة تنسب إليها مواسم الخير والعطاء، وتقام لها المعابد والطقوس الدينية، ويتوجه لها بالدعاء، كهذا الدعاء الموجه لأنانا السومرية: "سيدة النواميس الكونية، أيها النور المشع، يا واهبة الحياة وحبيبة البشر، أنت أعظم من كبير الآلهة آن، وأعظم من الأم التي ولدتك، يا مليكة البلاد والحكيمة العارفة، يا مكثرة المخلوقات"(٢).

---

(١) فراس السواح، لغز عشتار، ص ١٢٦.
(٢) فراس السواح، لغز عشتار، ص ٥٢.

- **تراجع أهمية دور المرأة**

وكان ذلك عصراً ذهبياً للمرأة، لكنه لم يدم طويلاً، إذ ازدادت الأعداد البشرية، وكثرت التجمعات السكانية، كلٌ يبحث عن المكان الأخصب والأوفر عطاءً، ومن ثم بدأ الصراع على مقدرات الطبيعة، وعلى منابع المياه ومنافذ البحار والأنهار، كان صراعاً من أجل البقاء، ومن أجل الحرية، ويتطلب من كل فرد بالمجتمع الاستعداد للذود عن الحياض أو الإغارة؛ لتوفير موارد جديدة وإبعاد شبح المجاعة، ومعها بدأ تقديس القوة، ومن ذلك كان العصر البطولي عند اليونانيين (١٢٠٠ - ١٠٠٠) ق. م، حيث قدست فيه القوة، وأصبحت أسمى الفضائل فيه فضيلة الذكاء مقرونة بالشجاعة والقسوة. ولما كان الرجل هو من زاده الخالق بسطة بالجسم وقوة في العضلات، أصبح هو المعني بالدفاع عن المجتمع، وتأمين حياة الرغد له، وأخذت صورة هذا البطل المغوار تطغى شيئاً فشيئاً على صورة المرأة وعطاءاتها وإنجازاتها، ومكانتها المقدسة، واكتفت المرأة بدورها التقليدي أمّاً وزوجة وربة منزل، ولذلك اعتبرت المرأة مخلوقاً ضعيفاً جسمانياً، يحتاج إلى الحماية من قبل الرجل، و رغم ما تحمل من مشاعر إنسانية وماتتصف به من

العطاء والإيثار، لكنها عدت عبئاً على الرجل، فإذا ما أخذ العدو زوجة أحدهم في السبايا لتكون محظية، فإن عليه أن يضع حداً لحياته، فاعتبرت الأنثى مصدراً للعار في أغلب المجتمعات، وكانت أحد أسباب الوأد عند العرب في العصر الجاهلي قبل الإسلام، كما أن نشوة الرجل بانتصاراته وزهوه بمدح قوته جعله لايرى عطاءات المرأة التي هو بأمس الحاجه إليها، فأخذ يسلبها حقوقها بشكل تعسفي، وليس أبلغ من أسطورة أثينة في إظهار هذا التعسف وهذا الظلم من قبل الرجل(١)، وهذا ما كان في الواقع، إذ حرمت المرأة من

(١) تحكي الأسطورة أنه "في صباح أحد الأيام، وقبل أن يطلق على مدينة أثينة اسمها المعروف، أفاق أهل المدينة على حادث عجيب. فمن باطن الأرض نبتت في ليلة واحدة شجرة زيتون ضخمة، لم يروا لها شبيهة من قبل، وعلى مقربه منها انبثق من جوف الأرض نبع ماء غزير لم يكن هناك البارحة. وقد أدرك الناس أن وراء ذلك سراً إلهياً ورسالة تأتي من الغيب. فأرسل الملك إلى معبد دلفي يستطلع عرافته الأمر، ويطلب منها تفسيراً، فجاءه الجواب أن شجرة الزيتون هي الإلهة أثينة، وأن نبعة الماء هي الإله بوسيدون، وأن الإلهين يخيران أهل المدينة في أي من الاسمين يطلقون على مدينتهم. عند ذلك جمع الملك كل السكان واستفتاهم في الأمر، فصوتت النساء الى جانب أثينة وصوت الرجال الى جانب بوسيدون، ولما كان عدد النساء أكبر من عدد =

حقوقها السياسية، وخسرت انتساب أبنائها إليها، وجردت حتى من مواطنيتها، "ففي اليونان كان حوالي ١٠٪ من مجموع سكان المدينة الدولة مواطنين يتمتعون بحقوق المواطنة، (إذ كان البالغون من الذكور فقط هم الذين يعتبرون مواطنين كاملين)."(١)

"فالمرأة لم تحصل على أية حقوق سياسية من الناحية الفعلية، ففي معظم المدن لم تكن تستطيع أن تظهر أمام المجلس بالفعل دون أن يكون معها متحدث من الذكور، كما لم يكن بمقدورها أن تملك أي عقار، وكانت محرومة من

= الرجال كانت الغلبة لهن، وتم إطلاق اسم الإلهة أثينة على المدينة. وهنا غضب بوسيدون فأرسل مياهه المالحة العاتية فغطت أراضي أثينة وتراجعت نازلة إملاحها التي حالت دون زراعة التربة وجني المحصول. ولتهدئة خواطر الإله الغاضب، فرض رجال المدينة على نسائها ثلاث عقوبات:

أولاً: لن يتمتعن بحق التصويت العام بعد اليوم.

ثانياً: لن يتسب الأولاد الى أمهاتهم بعد اليوم بل لآبائهم.

وثالثاً: لن تحمل النساء لقب الأثنيات، ويبقى ذلك وقفاً على الرجال.

فراس السواح، لغز عشتار.

(١) روبرت. ج. ليتمان، التجربة الإغريقية، حركة الاستعمار والصراع الاجتماعي ٨٠٠ - ٤٠٠ ق.م، ص٣١

حق التصويت في كافة المدن. وفي أثينة كان حق المرأة الوحيد تقريباً يتمثل في حق أولادها بالتمتع بالمواطنة، بشرط أن تكون متزوجة من مواطن."(١)

وعلى رحابة الدنيا وسعتها، حدد عالم المرأة الأثينية بمساحة لاتتعدى جدران جزء من منزلها بعيداً عن أعين الرجال والزائرين الغرباء، وحرمت من المغادرة إلا للضرورة القصوى بثياب تحجبها عن أعين الغرباء، ويقتصر دورها على الإنجاب، وتربية الأبناء، والعناية بالمنزل، بالإضافة إلى النسيج وصنع الملابس لها ولأسرتها، ورغم أهمية ماتقوم به إلا أن المجتمع لم يعتد به، واعتبره من الأعمال التى لا قيمه لها. وكان المجتمع الأثيني لايعتبر المرأة مؤهلة للتملك، ففي حالة عدم وجود أبناء ذكور لم يكن الوالد يوصي بثروته لابنته، بل كان يوصي بها لرجل يختاره على أن يتزوج تلك الابنة، وفي حال وفاة الوالد دون أن يوصي، يكون من حق أقرب الأقرباء أن يطالب بالزواج من الابنة الوريثة، وإن كانت الابنة متزوجة فعليها أن تنفصل عن زوجها وتتزوج هذا القريب، وإلا وجب عليها أن تتنازل عن ثروة والدها، فلم يكن يعتد بحياتها كإنسانة، بل كانت تعتبر جزءاً من الإرث الذي تركه والدها.

---

(١) روبرت. ج. ليتمان، التجربة الإغريقيه، حركة الاستعمار والصراع الاجتماعي ٨٠٠- ٤٠٠ ق.م، ص ٣٢

- **المرأة في إسبرطة**

كان المجتمع الإسبرطي مجتمعاً محارباً من الدرجة الأولى، وكانت إسبرطة محل إعجاب من جميع اليونانيين على اعتبار أنها أقوى المدن اليونانية، لقد حافظت إسبرطة على مكانتها بقوة تأثرها في فكرة فناء الفرد ودوام المدينة من خلال تعاقب الأجيال، وكان يتم ذلك على حساب التضحية بجميع الاعتبارات الشخصية للفرد، كما أن استرقاق الشعوب، ووجود العبيد بأعداد كبيرة في إسبرطة جعل المجتمع الإسبرطي في حالة استنفار دائم، خوفاً من أي تمرد يمكن أن يقوم به العدد الهائل من العبيد الأسرى الذين كانوا يتربصون بالإسبرطيين الدوائر. وعلى ذلك بني وضع المرأة الإسبرطية، فكان دورها الرئيسي هو إنتاج أجيال قوية صحيحة الجسم مقاتلة، أما سوى ذلك فيعد من الأمور الثانوية.

وكانت الحكومة معنية بشكل مباشر بنشأة الشباب، غير مكترثة بوضع المرأة أنثى، فكان كل ما يطلب منها هو أن تكون ذات بنيه قوية، صحيحة الجسم لتنجب أولاداً أصحاء قادرين على أن يكونوا محاربين أشداء يهابهم الأعداء، فكان يتحتم على المرأة الإسبرطية أن تمارس الرياضة العنيفة كي

تحافظ على جسمها قوياً، ولم يكن يتم ذلك بشكل فردي أو حر، بل تحت رقابة الدولة من خلال إقامة مهرجانات رياضية تشارك بها المرأة عارية تماماً، كي لا تخفي الملابس شيئاً من عيوب جسدها أو ترهل عضلاتها، وبذلك تضطر للعنايه بلياقتها. "ولم يكن يسمح للفتاة المريضة بالزواج، لأن النسل لابد أن يأتي مكتمل الصحة"(١)، كانت المرأة الإسبرطية قوية مسترجلة، لكنها لم تكن تتمتع بالاستقلال أو الحرية كما هو متوقع، أو كما يدعي البعض، إذ إن حياتها مرتبطة بإرادة الرجل الذي هو المشرِّع لدورها بالمجتمع، أو هو أبوها أو زوجها، فلم تكن أكثر حظاً من الماشية يتصرف بها مالكها كما يشاء "يروي جيمس دونالدسون أن رجلاً حاول استمالة امرأة إسبرطية ليقضي منها وطراً فقالت له: عندما كنت فتاة تعلمت أن أطيع والدي، ولقد أطعته، وعندما أصبحت زوجة أطعت زوجي. ومن ثَمَّ إذا أردت مني شيئاً كهذا فعليك أن تستأذنه أولاً.."(٢). ومن أجل تحسين النسل كان يطلب من المرأة ممارسة الجنس مع من يتمتع بالقوة بإرادة زوجها.

---

(١) إمام عبدالفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، ص ٤٨.
(٢) إمام عبد الفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، ص ٥٣.

ومع كل هذا الوضع المهين للمرأة نجد هناك من يشيد بالمجتمع الإسبرطي اعتقاداً منه أنه ساوى بين الرجل والمرأة، واعتبر الاسترجال نوعاً من المساواة، بينما الحقيقة هو أن المرأة الإسبرطية لم تكن سوى أداة تنفذ ما يمليه عليها الرجل دون أن يكون لها رأيها المستقل، أو دورها الفاعل في الحياة سوى الإنجاب وتربية الأبناء على القسوة، بل أجبرت على التخلي عن أنوثتها وعن عاطفتها التي تميزت بها بوصفها امرأة، وأصبحت من القسوة بحيث تستطيع قتل طفلها إن كان ضعيف البنية أداءً لواجبها اتجاه مجتمعها، وهذا يعد ظلماً للمرأة وتجاهلاً لِذَاتها ولطبيعتها الأنثوية، ووضعها بالقالب الذي يرتضيه الرجل من أجل مصلحته الخاصة، وإشباعاً لأنانيته.

- **المرأة المصرية**

ولم يكن وضع المرأة واحداً في جميع أنحاء المعمورة، فهناك من الحضارات التي كان حظ المرأة فيها أوفر، وحافظت به المرأة على مكانتها مدة أطول؛ كالحضارة المصرية، فعلو شأن المحاربين المدافعين عن الحياض لم يكن يقابله الحط من شأن المرأة، ويذكر لنا تاريخ مصر القديمة أسماء أربع ملكات حاكمات، إضافة إلى مكانة أم

الملك التي تحاط بهالة من التبجيل والسمو، وكذلك زوجة الملك، والتي لها الأهمية الأولى بعد الملك، فنرى كيف أحيطت نفرتيتي زوجة الملك أخناتون بهالة من المجد، وبقيت تماثيلها الجميلة إلى يومنا هذا تدلل على سمو مكانتها، وهذا ما كان ينطبق على المرأة من عامة الشعب، فلم تكن تقيد ضمن حدود منزلها، بل شاركت في الحياة العامة، وكان هناك من النساء مغنيات وموسيقيات، كما أن المرأة المصرية عملت في الصناعات كصناعة الأغذية والمنسوجات، وكان بعض النسوة يعرفن القراءة والكتابة. وعندما زار المؤرخ اليوناني هيرودوت (٤٥٠) ق. م مصر، أثار اهتمامه تجول النساء في الأسواق، وبقاء الرجال في البيوت ينسجون الأقمشة.

ومع ذلك فإن الوضع الغالب في معظم المجتمعات، كان هو ظلم المرأة، والتقليل من شأنها، بل أكثر من ذلك أن المجتمعات الذكورية لم تكتفِ بالتقليل من دور المرأة، ومن ثم سلبها حقوقها وجعلها تابعاً لا حول له ولاقوة، بل أخذت تنسب إليها ما يتعرض له العالم من شرور، وربما تكون الأسطورة مرة أخرى خير معبر عن نظرة تلك المجتمعات، تقول الأسطورة: إن الكون كان للآلهة قبل

البشر، وأن الإله برومثيوس خلق الرجال، وأخذ ينظر إليهم من علوه عباداً صالحين طائعين، ثم أراد أن يكافئهم على تقاهم وصلاحهم، فسرق النار في غفلة من كبير الآلهة زيوس لينعم بها على الرجال الصالحين، فغضب كبير الآلهة وقرر عقابه، وكان أن قيده إلى صخرة في جبال القوقاز، وجعل نسراً ضخماً يأتي كل يوم في ساعة معينة يمزق بمخالبه الحادة جسم المارد وينهش كبده، وفي الليل تلتئم جراحه لتمزق من جديد في اليوم التالي.

ولم يفلت الرجال من عقابه، وبعد أن كانوا يعيشون عصرهم الذهبي في جنات ذات أنهار وعيون وفاكهة مما يشتهون، راضين مطمئنين، لايخشون الأمراض ولا يعلمون شيئاً عن الشرور، أرسل إليهم زيوس من يعكر صفو حياتهم ويحولها قلقاً وآلاماً، وكان العقاب هي الأنثى التي تدعى بندورا، والتي أعطتها الإلهة أفروديت من جمالها، وعلمتها الإلهة أثينة أعمال المنزل وغزل الصوف، ثم حملها هرمز رسول الآلهة إلى برومثيوس، الحكيم المتبصر، فبحكمته وبعد نظره رفضها، وتزوجها شقيقه إبيمتيوس Epimetheus المتهور الأعرج الشائه، وبمناسبة هذا الزواج أهدى زيوس بندورا - وهذا اسم أول امرأة من البشر- صندوقاً، ما إن

فتحته حتى انتشرت الأمراض والعلل والفقر والشدائد والمصائب، وكانت نهاية العصر الذهبي الذي كان يعيشه الرجل، بل ولم يطل العصرالفضي أيضاً، إذ تغلغلت الشرور في نفوس البشر نتيجة المعاناة والفقر، وأخذوا يتصارعون على الأرزاق ثم استشرى القتل على وجه البسيطة.

- **حضارة ما بين النهرين**

لم يكن حظ المرأة في الحضارات المجاورة لليونان بأفضل، ففي حضارة مابين النهرين -التي تعتبر من أقدم الحضارات- في هذه الحضارة كان جبروت الرجل وسلطته تمتد إلى جميع أفراد أسرته، وباعتبارهم أملاكاً خاصة، يضمن له القانون السائد حرية التصرف بهذه الأملاك من بيع ورهن، وفي حالة وفاة الوالد تنتقل هذه الملكية ومعها الصلاحية في البيع والرهن إلى الابن الأكبر، وتكون والدته ضمن هذه الأملاك، وتبقى المرأة متاعاً ينتقل من مالك إلى آخر ولو كان هذا المالك أباً أو ابناً.

ومما جاء في قوانين آشور الوسطى:

A - 59: عطفاً على العقوبات المنصوص عنها في الألواح، والمفروضه على [المرأة المتزوجة]، يحق للزوج

أن يجلد زوجته أو أن يقتلع (شعرها)، أن يشرم أذنها أو يقطعها دون أن يترتب على ذلك أي أثر قانوني[١].

- **المرأة في الهند**

وفي الهند عدت المرأة قاصرة وغير مؤهلة للاستقلال عن أبيها أو زوجها أو أولادها، وفي حالة فقدانهم جميعاً توجب عليها الانتماء إلى رجل من أقارب زوجها، فلا وجود لها إلا في ظل الرجل، بل هناك تقليد يحرم المرأة من الحياة بعد وفاة زوجها، فلابد أن تموت إن مات زوجها طوعاً لتكون صالحة، ولما كان التقليد حرق الجثة، وجب على الزوجة أن تحرق مع جثة زوجها حية.

- **الديانة اليهودية**

وفي الديانة اليهودية لم يبتعد سفر التكوين كثيراً عن فحوى أسطورة بندورا اليونانية، في الأخبار عن خلق آدم أبي البشر، يقول: خلق الله آدم من أديم الأرض، وأسكنه الجنة شرقي عدن، وخلق من ضلعه زوجته حواء، يأكلون من الجنة مايريدون، إلا أنه حرم عليهم شجرة في منتصف

(١) شريعة حمورابي، ترجمة أسمه سراس، ص ٦٥، دار علاء الدين.

الجنة، فجاءت الحية وأقنعت حواء بالاقتراب من تلك الشجرة، وتذوق ثمارها، وأنها شجرة الخلود، وعندما أكلت حواء أعجبها طعم الثمرة فأطعمت آدم، وعند اكتشاف أمرهما، سأل الرب آدم: لماذا عصاه وأكل من الشجرة المحرمة؟ أجابه: "إنها المرأة التي جعلتها رفيقه لي. هي التي أطعمتني من ثمر الشجرة، فأكلت" وكان العقاب، أولاً للمرأة.

ثم قال الرب للمرأة: أكثر تكثيراً أوجاع مخاضك فتنجبين بالآلام أولاداً، وإلى زوجك يكون اشتياقك وهو يتسلط عليك" وقال لآدم: "لأنك أذعنت لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي نهيتك عنها، فالأرض ملعونة بسببك وبالمشقة تقتات منها طوال عمرك، شوكاً وحسكاً تنبت لك، وأنت تأكل عشب الحقل. بعرق جبينك تكسب عيشك حتى تعود إلى الأرض، فمن تراب أخذت وإلى التراب تعود".

وأخرج الإنسان من الجنة وكتبت عليه المعاناة في هذه الحياة من أجل لقمة العيش، وحرمت الأرض من الرحمة، كل ذلك بسبب خطأ حواء.

فالمرأة في الديانة اليهودية تحمل وزر كل ما يلاقيه الإنسان من آلام ومشاق، " الإنسان مولود المرأة قصير

العمر ومفعم بالشقاء"[1] واليهودي المؤمن يشكر ربه كل صباح على أنه لم يجعله عبداً ولا امرأة.

الزواج في الديانة اليهودية هو من أجل استمرار الحياة وتكثير النسل، ولا ينظر للمرأة إلا على أنها وسيلة لذلك. وسلطة الأب في أسرته سلطة مطلقة، يورث من يشاء ويحرم من يشاء، ويستطيع التصرف بأبنائه كما يشاء، فيبيع ابنته لمن يرغب في شرائها " إذا باع رجل ابنته أمة لا تخرج كما يخرج العبيد.. " سفر الخروج (٢١-٧). وله أيضاً أن يزوجها لمن يشاء دون أخذ رأيها وربما يهبها مكافأةً "من يضرب قرية سفر ويأخذها أعطية عكسة ابنتي امرأة" سفر الخروج (٢١-٧).

ونجد في سفر الجامعة، الإصحاح السابع: ٢٦ "وجدت أمر من الموت: المرأة التي هي شباك، وقلبها شراك، ويداها قيود. الصالح قدام الله ينجو منها، أما الخاطئ فيؤخذ بها.." .

- **المرأة في الديانة المسيحية:**

في هذا المجتمع المعادي للمرأة (المجتمع اليهودي)، وفي ظل الإمبرطورية الرومانية، ولدت السيدة مريم عليها

---

(١) العهد القيم، سفر أيوب، إصحاح ١٤.

السلام، اصطفاها الخالق وفضلها على الكثير من الرجال لتكون قديسة ووالدة قديس هو سيدنا عيسى عليه السلام، وجاءت رسالته رسالة محبة ورحمة، أنصفت المرأة، وأعادت إليها مكانتها، وهذا ما تدلل عليه بعض الآثار الباقيه في الإنجيل، كقوله عليه السلام: "وليوف الزوج زوجته حقها الواجب...." مخالفاً بذلك أعراف المجتمع الذي يحرم المرأة من حقوقها ويجعلها ضمن ممتلكات الزوج، تابعاً ناقص الإنسانية.

"وإن كان لامرأة زوج غير مؤمن، وترتضي أن يسكانها، فلا تتركه. ذلك لأن الزوج غير المؤمن قد تقدس في زوجته.."(١) فبعد أن كانت المرأة شرّاً خالصاً، أوصت بها التعاليم المسيحية وجعلت بها الخير لزوجها.

إلا أن المفاهيم الخاطئة، ونزعة التسلط لدى الرجل تغلبت ثانية، إذ يأتي القديس بولس من طرسوس بآسية الصغرى من عائلة يهودية محافظة، وكان يهودياً متشدداً ومعادياً للمسيحية الدين الجديد، لكنه ترك اليهودية واتخذ المسيحية ديناً عمل من أجله، وجاء بالكثير من التعاليم مغلباً فيها ثقافته اليونانية وتعاليمه اليهودية التي تحط من شأن

---

(١) الرسالة الأولى إلى مؤمني كورنثوس.

المرأة، فيقول: "أما المرأة فهي مجد الرجل، لأن الرجل ليس من المرأة، بل المرأة من الرجل.."(١)، وهو موروث يوناني يعبر عن الهيراركية التي تحدث عنها أرسطو. و يصف الأب جيروم Jerome أب اللاتين في الكنيسة المسيحية المرأة بأنها بوابة الشيطان والطريق إلى الشر"(٢).

وفي القرن الثالث عشر للميلاد يقرر عالم اللاهوت المسيحي توما الأكويني " Thomas Aquinasأن المرأة خاضعة للرجل لضعف طبيعتها الجسمية والعقلية معاً. والرجل مبدأ المرأة ومنتهاها، كما أن الله مبدأ كل شيء ومنتهاه. وقد فرض الخضوع على المرأة عملاً بقانون الطبيعة، أما العبد فليس كذلك. ويجب على الأبناء أن يحبوا آباءهم أكثر مما يحبون أمهاتهم".(٣)

---

(١) الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح الحادي عشر ٧- ١٠.
(٢) وقع القديس بولس في غرام ابنة أستاذه الحاخام جماليل الجميلة وأراد الزواج منها، لكنها رفضته، ويرى البعض أن ذلك يفسر كراهيته للمرأة، إضافة إلى نشأته في ثقافتين تكرهان المرأة وتستخفان بعقلها، وتحتقران جسدها. د.إمام عبد الفتاح إمام - الفيلسوف المسيحي والمرأة.
(٣) الدكتور إمام عبد الفتاح إمام، الفيلسوف المسيحي والمرأة، ص ١٤٤، مكتبة مدبولي.

هكذا نادى رجال الدين بالابتعاد عن المرأة قدر الإمكان تلافياً لشرورها حسب ادعائهم.

ورغم مايمكن استنتاجه من أن في رسالة المسيح إنصافاً للمرأه، الا أن دور الكنيسة كان معاكساً إذ رسخ النظرة التقليدية السائدة عن المرأة، فلم تكن المرأة في نظر رجال الكنيسة إلا وسيلة لبقاء النوع، وتابعاً للرجل تعمل على خدمته ورعاية مصالحه، ومن واجبها إطاعة أوامره سواءً كان أباً أو زوجاً مهما كانت هذه الأوامر.

- **المرأة في الحضارة الرومانية**

حصلت المرأة في الحضارة الرومانية على حظ أوفر من نظيرتها اليونانية، فبغض النظر عن الحقوق السياسية الرسمية، والتشريعات التي تحرمها من حقوقها الطبيعية، إلا أنه كان لها بعض الظهور في الحياة العامة، فكانت تعمل في الحوانيت والمصانع، وبعض النساء اتجهن للعلم فأصبحن محاميات وطبيبات وشاعرات، وظهر لبعضهن سلطان سياسي قوي، وكانت زوجات حكام الأقاليم يستعرضن الجند ويخطبْن بهم[1]. وفي رومة وجد ناد للسيدات، وكان ذلك

---

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء العاشر ص ٣١٧، ترجمة محمد بدران، دار الجيل - بيروت.

وسط سخط البعض، إذ "كان المحافظون يبدون الألم والشماتة حين ظهر لهم أن قد وقع ما حذرهم منه كاتو حين قال: إن النساء إذا ما تساوين بالرجال سيحولن هذه المساواة إلى سيادة لهن"(١).

أما القانون الروماني فقد منح الرجل سلطاناً لا حد له على زوجته وأبنائه، وهذه السلطه تظهر حين ولادة طفل معاق أو في حالة كون المولود أنثى غير مرغوب فيها، فإن من حق الأب التخلص منهما بأي طريقه شاء، كأن يغطس المولود في الماء إلى أن يفارق الحياة غرقاً، أو يتركه في العراء فوق قمة جبل من الجبال إلى أن تفترسه الوحوش البرية، وله أيضاً خنق الطفلة إلى أن تموت، وذلك دون أي تدخل من قبل السلطة في عقابه فهو يتصرف بأملاكه الخاصة. أما في حالة قبول الوليد أو الوليدة، فإن الوالد يحمل مولوده بين ذراعيه ويرفعه إلى أعلى أمام الشهود بعد ولادته.

وللأب دون سائر أعضاء الأسرة حق الملكية، وله حق التصرف فيها من بيع وشراء وميراث، فيحرم من يشاء من أبنائه ويعطي من يشاء، كما يحق له اختيار شركاء حياتهم أو

---

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء العاشر ص ٣١٧، ترجمة محمد بدران، دار الجيل - بيروت.

فرض الطلاق عليهم إن شاء. وهذا يقودنا إلى استنتاج أن بعض النساء استطعن التغلب على قيود مجتمعهن وقوانينه الجائرة وتحقيق ذاتهن. ثم جاءت وبعد قرون مدونة جوستان في عام ٥٦٥م لتحد من سلطة الرجل، وتجعل بعض المتنفس القانوني للمرأة. فألغى حق البيع والرهن والقتل والنفي والتعذيب[١]. وهي مدونة في الفقه الروماني، ومعنية بالمرأة الرومانيه الحرة. ومما أتى فيها:

١- ليس للنساء ولاية الأعمال العامة.

٣- رأى القدماء جعل النساء تحت الوصاية، ولو بلغن سن الأهلية؛ لطيشان عقولهن.

١١- على النساء الخضوع لأزواجهن.

١٢- على المرأة أن تتبع زوجها مالم يكن أفاقاً.

١٤- الرجال قوامون على نسائهم.

١٦- المرأة دون الرجل في كثير من أحكام القوانين.

١٧- تجوز المقايضة على المهر في أثناء قيام الزوجية متى كان ذلك في مصلحة المرأة[٢].

---

(١) د.بدر الدين السباعي، مشكلة المرأة، العامل التاريخي، ص ٥٦.
(٢) د. إمام عبد الفتاح إمام، الفيلسوف المسيحي والمرأة، ص ١٨.

وكما يتضح فإن المدونة لم تأتِ بالكثير، لكنها خففت من حدة القوانين الجائرة، فكما نرى فإن حقوق المرأة على الصعيد القانوني لا تمر إلا عبر الرجل، هو الوصي عليها طيلة حياتها، أولاً لعدم أهليتها، وثانياً وبعد أن تصل إلى السن القانوني لطيشان عقلها، وهذا في الواقع يعود إلى عادة الرومان بتزويج الفتيات في سن صغيرة جداً، وتظهر لنا قصة كورنيليا Cornelia[١] التي رواها بلوتارك أنه بعد وفاة زوجها، كانت في الخامسة والعشرين من عمرها، وأماً لاثني عشر ولداً. ونستنتج من ذلك أن كورنيليا تزوجت في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها. وهذا يعود إلى اعتبار الفتاة أحد الأملاك الخاصة، يتصرف به الآباء حسب مصالحهم الشخصية، كعقد التحالفات بين العائلات، أو توثيق العلاقات بين أصحاب المصالح المتبادلة، وربما تعقد اتفاقيات الزواج بين الآباء وما تزال الفتاة في المهد. وتظهر قصة الفتاة هوراشيا Horatia، مكانة الفتاة في أسرتها، "تقول القصة: إن الفتاة هوراشيا، كانت مخطوبة لشاب من عائلة كرياتي Curiatii، ثم وقع شجار وصراع بين أشقائها وبين الكرياتيين، فقتل الأشقاء ثلاثة منهم - كان منهم

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، الفيلسوف المسيحي والمرأة، ص ٢٠.

خطيب هوراشيا - كما قُتل في المعركة اثنان من أشقاء الفتاة. وحزنت هوراشيا حزناً شديداً على مصرع خطيبها. غير أن شقيقي الفتاة اللذين ظلا على قيد الحياة ضايقهما أشد الضيق حزن الفتاة على خطيبها، فقام أحدهما بطعنها بخنجر وهو يقول: هكذا لابد أن تموت كل امرأة رومانية تحزن على عدو. وعلى الرغم من أن هذا الشقيق أجبر على تقديم كفارة يعبر بها عن ندمه على سلوكه الطائش، إلا أن الأب عبر عن رضاه التام عن سلوك ابنه مؤكداً أنه لو لم يكن ابنه قد أقدم على قتلها لقتلها هو بنفسه بالسلطة المخولة له، بوصفه والدها»[1].

وعلى الصعيد الديني فإن المرأة هي مجرد تابع، فهي على ديانة والدها مادامت تحت رعايته، أما حين تنتقل إلى منزل الزوجية فإنها تصبح ملكاً خاصاً لزوجها وعائلته، وعليها أن تتخلى عن ديانة والدها وتتبع ديانة زوجها وعائلته. وهي مستبعدة كما في مدونة جوستنيان من ولاية الأعمال العامة، ومن جميع الوظائف التي يطلق عليها وظائف الرجال. وكانت المرأة الرومانية ترث، لكن إذا تزوجت

---

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، الفيلسوف المسيحي والمرأة، ص ٣١.
(Satah B. Pomperoy:Ibid,P.152-3)

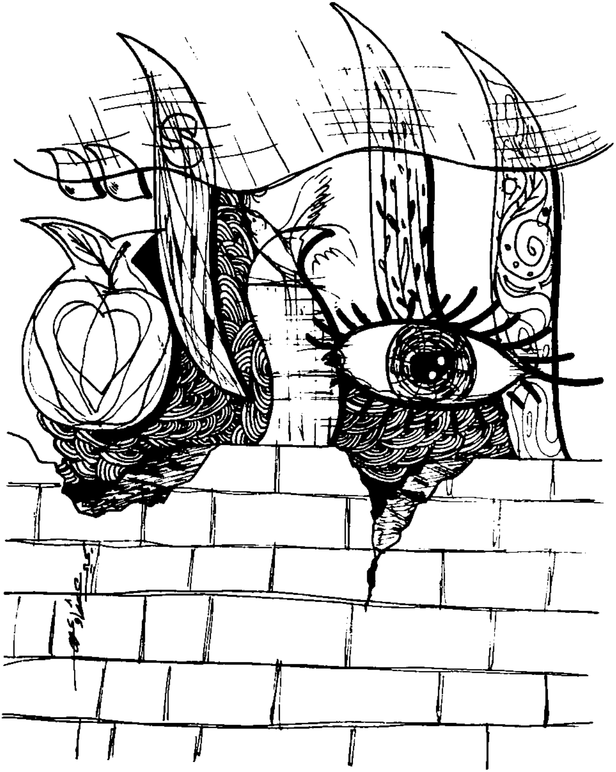
حرمت حق التملك وآل ميراثها وما تملك لزوجها، وإذا تركت منزل الزوجية لاتستطيع أخذ شيء معها ولا حتى أبنائها.

قياساً للوضع قبل مدونة جوستان، فإن المرأة حصلت على بعض حقوقها، وجعل منها الرجل رفيقة لحفلاته وسهراته، يطلب ودها ويتقرب إليها، مما جعلها تستفيد من ذلك في أن يكون لها دورٌ مؤثرٌ في عالم السياسة ولو أنه غير قانوني، إلا أن هذه المراحل التي عدت ذهبية قياساً لغيرها من المجتمعات، كانت مرتبطة بهيمنة الإمبرطورية الرومانية وسيطرتها على معظم أنحاء المعمورة. وعندما انحسرت هيمنة الرومان وتراجع ملكهم، وساء وضع المجتمعات الرومانية اقتصادياً واجتماعياً، تراجعت معه مكانة المرأة وساء وضعها، وظهر زيف ماأعطي لها من امتيازات براقة نسبياً، فلم يكن ينشد الرجل من وراء مشاركة المرأة له حياته الخارجية وحفلاته إلا متعته الشخصية، وإضفاء جمالٍ وجاذبية على حفلاته وسهراته التي أخذت جل حياته.

أما العصور الوسطى أو عصور الظلام، التي جاءت بعد ذلك، فقد كان وطؤها أشد على المرأة، إذ سيطرت الكنيسة - بما يحمله رجالها من أحكام جائرة على المرأة - على

المجتمعات، وعم الجهل، وفرضت على المرأة أن تكون تابعاً للرجل خانعة مطيعة له دون تفكير، بل سمحت القوانين والأعراف التي سادت تلك العصور بتعذيب المرأة لأتفه الأسباب، ومن أشكال التعذيب التي يندى لها جبين البشرية، أن كانت تربط أطراف المرأة التي يراد تعذيبها بعدد من الخيول ثم تبدأ تلك الخيول بالجري بكل الاتجاهات، ومعها تقطع أوصال المرأة إلى أجزاء وهي ماتزال حية، أو يصب عليها القطران، وغيرها من صنوف العذاب. ومع ذلك كانت الفتاة غير المتزوجة تحصل على ميراثها وبالتساوي مع الرجل خلافاً لمعظم المجتمعات في ذلك الوقت، أما عندما تتزوج فإنها هي وميراثها تصبح من ممتلكات الزوج، لايحق لها أن تتصرف به دون رغبته.

ولكن، إذا كانت حياة الرجل لا تستوي دون وجود المرأة، والعالم لايكتمل من دونها، فلماذا تلك النظرة الدونية، وذلك الظلم الذي يقع عليها؟!...



أسباب تدني منزلة المرأة في المجتمعات

أجمع كثير من المفكرين على أن وضع المرأة بدأ بالتردي مع ظهور الملكية الخاصة، أما فيما قبل ذلك فإنهم يزعمون، أن الحياة المشاعية كانت تسود المجتمعات القديمة، وأنها شملت الحياة الجنسية أيضاً، ومن ثم كان نسب الأبناء يتبع الأم، وعندما بدأ الاستقرار وبدأت معه الملكية الخاصة، ظهر الميراث، وأصبح الرجل بحاجه إلى أبناء يحملون اسمه ويرثون أملاكه، أي يرثونه مادياً ومعنوياً، وهكذا أصبح يشعر بضرورة الحفاظ على نقاء زوجته ليضمن نسب أبنائه الذين سيرثونه، هذا ما استنتجه عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي لويس مورجان L. Morgan (١٨١٨ - ١٨٨١) بعد دراسته للهنود الحمر، والمجتمعات البدائية التي تعيش في عصره، وما زالت بعيدة عن الحضارة، وعلى

ضوء ذلك قام بتقسيم التاريخ البشري إلى ثلاث مراحل: المرحلة الوحشية، ثم المرحلة البربرية، ثم مرحلة الحضارة. وهذا ما اعتمد عليه ماركس وأنجلز، وكانت أساساً لكتاب إنجلز (أصل العائلة والملكية الخاصة)، ومن ثم بنى عليه كثير من المفكرين آراءهم ونظرياتهم.

وهذه النظرية لا تنفصل عن نظرية داروين التي تقول: إن الحياة البشرية، بدأت من خلية واحدة، ثم تطورت إلى أن بلغت حداً نتج عنه القرد، الذي تطور بدوره لينتج الإنسان، وهذا الإنسان مازال يتطور في خط تصاعدي وعلى وتيره واحدة مكوناً مراحل التاريخ البشري، إلى أن يصل حد الكمال، ويبلغ جميع احتياجاته، ومن ثم تكون نهاية التاريخ البشري، ويكون الفردوس الدنيوي.

إن قبول هذه النظريات التي روج لها وسادت في الشرق والغرب، يعود إلى تجاهل ماهية الإنسان الحقيقية، فرغم اشتراك الإنسان في الكثير من الصفات مع الكائنات الأخرى، ورغم خضوعه في جوانب كثيرة لقوانين الطبيعة، إلا أنه يتميز من غيره من الكائنات الحية بامتلاكه عقلاً يفكر ويتدبر، يتأثر بالظروف ويؤثر فيها، يمتلك إرادة حرة، هو امتداد لماضيه وصانع لمستقبله، يتقدم ويتراجع، هو المبدع وباني الحضارات، وهو أيضاً مدمرها، فهو لا يسير على

وتيرة واحدة، وتطوره إلى الأمام ليس حتمياً، فهو الوحيد بين الكائنات القادر على كسر القوانين، ورفض التشريعات، والتاريخ يخبرنا عن أمم بلغت القمة ثم تراجعت وتخلفت، وكثير من الدلائل تشير إلى أن الهنود الحمر هم جزء من حضارات عريقة من العالم القديم، وصلت إلى القمة، وكانت سيدة البحار، ولذلك استطاع أفراد منها الوصول إلى سواحل العالم الجديد، والاستقرار فيه، ومن ثم حدث انقطاع بينهم وبين بلدانهم ومجتمعاتهم، وتكيفوا مع الظروف الجديدة التى أحاطت بهم، وهذا ما أوصلهم إلى الوضع الذي وجدوا عليه، ربما حافظوا على بعض العادات والأعراف، واضطروا للتخلي عن بعضها، ويمكن أن يكون حدث تراجع وتخلف في بعض العادات، وربما يكون هناك تطور في بعضها الآخر.

أما النظريات المادية التي عمَّت العالم، فقد أدت إلى تراجع الإنسان بوصفه محوراً للكون، وخليفة للخالق في الأرض يطبق تشريعاته، وينشر تعليماته، فحررته من تلك المسؤولية، بعد أن جعلته مستوياً مع الكائنات الأخرى، منكراً وجود الخالق، متجاهلاً الجانب الروحي والامتيازات التي حباه الله بها، وهذا انسحب أيضاً على الأخلاق؛ فلم تعد عائقاً في سبيل تحقيق أي هدف يبغيه.

لكن إذا اعتقدنا أن هناك إلهاً خالقاً، خلق الإنسان وجعله محوراً لهذه الحياة، وكانت البداية كما تخبرنا الأديان مع آدم وحواء، فلا بد أن نؤمن أن الحياة البشرية بدأت بعائلة مكونة من آدم وحواء هي اللبنة الأولى في تاريخ البشرية، ومن ثم بدأت تتكاثر مكونة مجتمعات، جعل منها التنقل والتباعد المكاني والزماني مجتمعات متنوعة بينها اختلافات، ساهم المكان والظروف المعيشية بدور كبير في التراجع أو التطور الذي آلت إليه تلك المجتمعات. ومن ثمّ فإن الشواهد التي وصلت إلينا عن المشاعية الجنسية، فما هي إلا إحدى نتائج تدني منزلة المرأة، واعتبارها أحد ممتلكات الرجل، يتصرف بها كتصرفه بالماشية التي يملكها، يستطيع تقديمها لضيفه إذا شاء، أو حتى بيعها، أو جعلها تضاجع رجلاً آخرَ من أجل تحسين النسل، وهذا دليل آخر على أن إنسان تلك المجتمعات لم يكن حريصاً على النسب الخالص، بل هو على استعداد أن ينسب إليه ابناً ليس من صلبه، وأن يورثه اسمه وأملاكه، شريطة أن يتمتع هذا الطفل بصفات مرغوب بها. والغريب أن نجد من يمتدح مشاعية النساء، ويعتبرها بمثابة الحرية للمرأة.

أما الملكية الخاصة والتي خرج بها ماركس وإنجلز وغيرهم ممن يعتبرون العنصر الاقتصادي هو الأصل في حياة

البشرية، فليسا سبباً في تدني منزلة المرأة، بل إن حب التملك هو غريزة خلقها الله في الإنسان، فإن كانت متوازنةً لدى الأفراد والمجتمعات، فإن دورها يكون إيجابياً. ويبقى هناك أسباب أخرى لتدني منزلة المرأة.

- **أولاً - تقديس القوة وظهور عصر البطولة**

السبب الأكثر اقتراباً من الواقع والمنطق، هو كما أسلفنا في البداية من أن وضع المرأة بدأ بالتردي مع ظهور التنافس بين المجتمعات والتجمعات البشرية على مقدرات الطبيعة، إذ أصبح كل مجتمع بحاجة إلى مدافعين أقوياء، يحافظون على استقلاله، ويصدون هجمات الأعداء الطامعين، وهذا الوضع مازال مستمراً إلى يومنا هذا، وطبيعة الرجل الجسمانية وما يتمتع به من قوه وبسطة في الجسم، وما يتسم به من جسارة جعلته في المقدمة، بينما تراجع دور المرأة في هذا المجال إلى المشجع الذي يطلب الحماية من هؤلاء الأبطال الأقوياء، ولم تقف المرأة مكتوفة الأيدي بل أخذت تدعمهم معنوياً وتشد من أزرهم، وتوفر لهم احتياجاتهم قدر استطاعتها، وقد تحولت بعض المجتمعات إلى مجتمعات محاربة، بل بالغت في هذا المجال، إذ أصبح جل اهتمامها منصباً على بناء جيوش قوية، والاحتفاء بأبطالها على حساب الجوانب

الأخرى من الحياة، كالعلم والثقافة والفنون، إلا مايعزز روح البطولة في نفوس أبنائها من المقاتلين. ومن ثم نسجت الأساطير حول الأبطال، ونسب بعضهم إلى الآلهة، فتصور لنا الأساطير اليونانية هرقل بطلاً تنسبه إلى كبير الآلهة زيوس، استمد منه القوى الخارقة، فلا يكاد ينتهي من معركة حتى يدخل غيرها، يحمي مدينته من الأعداء الأسطوريين، وزوجته قابعة في المنزل تقوم بواجباتها زوجاً وأمّاً وتنتظر عودته بفارغ الصبر، فيعود إليها بعد طول غياب تتقدمه المحظيات من السبايا، منهن الصغيرات، ومنهن من يفقنها جمالاً وفتنة، وماعليها إلا أن تخفي مشاعرها الطبيعية، وترحب به وبمن معه، فهو لايفعل إلا ما هو من حقه، وكأن دورها لايساوي شيئاً أمام من يدافع عن المدينة، ويحمي أهلها من الأعداء. وعندما أتى بإحدى المحظيات - وكانت قد علمت أنه وقع في غرامها واصطنع المعركة من أجل الحصول عليها- وعندما عجزت عن مقاومة شعور الغيرة الطبيعي، وأرادت أن تدافع عن حبها وعن نفسها خوفاً من الإهمال ومن فقدان مكانتها في قلب من تحب، تسببت بنهاية البطل عن غير قصد، وكانت الخسارة فادحة، فهي خسارة قومية، ولم يكن أمامها إلا أن وضعت حداً لحياتها، تكفيراً عن ذنبها وتفادياً لنقمة من حولها سواء أهل بيتها أو أهل مدينتها.

• ثانياً - حاجة المرأة لحماية الرجل:

والسبب الثاني الذي جعل الرجل يقلل من مكانة المرأة ويضطهدها، هو أنها أضحت عبئاً عليه، وهو المحارب الذي يعيش حياته بين كرٍّ وفر، وحماية المرأة مسؤوليته، وفي حال سبيها فإنها تلحق العار بزوجها، وبذويها من الرجال، وفي المجتمع الإسبرطي كان إذا ما أخذ العدو زوجة أحدهم من بين السبايا لتكون محظية فإن عليه أن يضع حداً لحياته، ومن أجل ذلك كانت عادة وأد الإناث منتشرة بعدد من المجتمعات، ولو أننا نجد الرجل في بعض القبائل العربية يفتخر بأنه أخو فلانة، فتتملكنا الدهشة، وبعد تفكير وتحليل نعود فنقول: إنما هو تباهٍ بحريتها التي حافظ عليها، وأنه تتمتع بحماه.

• ثالثاً - فرض الجهل على المرأة

إن البطولات التي حققها الرجل وحاجة المرأة لحمايته، جعل المجتمع يرفع من مكانته ويحط من مكانة المرأة معتبراً إياها ضعيفة وعالة على الرجل، مستهيناً بدورها أمّاً ومربية لأبنائه، فأهمل تربيتها وأبعدها عن الحياة العامة، وعزلها عن المجتمع، وحصر مهامها داخل نطاق المنزل والأسرة،

تقوم بالأعباء المنزلية، وتربي الأطفال بما تحمل من إمكانات متواضعة، فتنقل جهلها إلى أبنائها، وبذلك فرض عليها الجهل، ثم اتهمها بالجهل والسذاجة، وأصبحت من الصفات الملازمة للمرأة وكأنه قدرها، إضافه إلى ذلك سنجد من ينسب إليها الشر، ومن يبالغ في وصفها، فيجعل منها بوابة الشيطان، أو هي أفعى.

إن هذه الاتهامات التي تنهال على المرأة، ليست بسبب قصة الخروج من الجنة فقط، بل إنها تحمل جانباً واقعياً، يعود إلى أن المرأة التي جهلت وهضمت حقوقها، حرمت من استخدام طاقتها استخداماً إيجابياً يخدم من حولها، فعمدت إلى الحيلة للوصول إلى مبتغاها، واتخذت أساليب دفاعية ذكية - ربما لايفطن لها غرور الرجل - ضد الظلم الذي تتعرض له من قبله، فالمرأة تحمل طاقات وملكات وغرائز بقدر ما يحمل الرجل، وإن لم تهذب بالعلم والعمل المنتج الطموح، أفرغت في غير موضعها، وكانت نتائجها عكسية يعاني منها المجتمع برمته.

• رابعاً - دور الفيلسوف في نظرة المجتمع للمرأة

هناك رأي يقول: إن الصورة الشائعة عن المرأة، هي التي رسمها الفيلسوف اليوناني، ومن ثم لاقت قبولاً ورواجاً

في العالم الشرقي كما في العالم الغربي، بل ارتدت لبوساً دينياً، وتحصنت داخل المجتمعات، وكأنها ثوابت غير قابلة للجدل.

فهل يعقل أن يقع الفيلسوف أسيراً لأفكار العامة؟!..

يقول الدكتور إمام عبد الفتاح إمام: إن عمل الفيلسوف "هو الحفر في التراث الثقافي في عصره بغية الكشف عن الأفكار التي تعد بمثابة الركائز التي يعتمد عليها هذا التراث، ثم يتولاها بالنقد والتمحيص، فإن صادفت هذه الأفكار هوى في نفسه عمد إلى تدعيمها وتأكيدها"[1]، لذلك لا نجد أي اختلاف في نظرة المفكر والفيلسوف الدونية للمرأة عن نظرة رجل الشارع العادي لها، فهو رجل وفي التقليل من مكانة المرأة إرضاءً لغروره، وهو أيضاً بحاجة لمن يخدمه وينفذ أوامره دون مناقشة كعبد خلق من أجله.

١ - أفلاطون

لقد كانت بدايات الفلسفة في بلاد اليونان، في القرن السادس قبل الميلاد، لكن عصرها الذهبي كان في أثينة في القرن الرابع قبل الميلاد مع أفلاطون، أرسطو، وسقراط،

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، ص ٩.

وتجاوزت شهرتهم غيرهم من الفلاسفة، فما موقف هؤلاء من المرأة؟..

لقد كان وضع المرأة متدنياً في ذلك العصر وفي أثنية كما أسلفنا في البداية، إذ جعلت في مكان مظلم، وأحيطت بهالة من الصفات شكلت حاجزاً بينها وبين أن تحيا حياة طبيعية، وتمارس حقها بأداء دورها الفعال والهام بالمجتمع.

ولم يكن الفيلسوف إلا رجلاً عايش تلك الحياة، وتشرب مفاهيمها، فها هو أفلاطون في محاورة الجمهورية الكتاب الثالث، في تربية الجند طبقة الحرس، يحذر من عدة أمور، حتى لا تفسد التربية، يقول في الأمر الأول: "سنكون على حق لو جنبنا ذلك العويل والنحيب وتركناه للنساء".

أما الأمر الثاني، فيقول: "فلن ندع أولئك الذين نُعنى بهم، ونعمل على غرس الفضيلة في نفوسهم، والذين هم قبل كل شيء رجال، لن ندعهم يحاكون امرأة شابة كانت أو مسنة، تعنف زوجها، أو تتطاول على الآلهة غروراً بنفسها، أو تندب حظها العاثر، أو تستسلم للعويل والنحيب..".

عباراته لا تحتاج إلى تعليق، فهي مشبعة بالتمييز والنظرة الدونيه للمرأة .

وهو لا يكتفي بذلك، بل يضع على عاتق المرأة ما يقع من فساد في المجتمع، فبسبب أنانيتها واهتمامها بمصالحها الخاصة تدفع زوجها وابنها إلى الفساد، وكأنها "بندورا" في المثيولوجيا اليونانية.

وهذا ما جاء في الكتاب الثامن من محاورة الجمهورية؛ فهو يطرح سؤالاً عن كيفية تشكل صورة الشاب الطموح في نظام الحكومة (التوقراطية)، ويجيب: "تتشكل أولاً من خلال أحاديث أمه، حين تشكو من أن أباه لم يحتل مكانة بين أصحاب المناصب، مما ينقص قدرها بين النساء الأخريات، كما أنها تراه لا يعبأ بجمع المال إلا قليلاً، ويعجز عن الدخول في معارك كلامية، ومواجهة الإهانات..."[1].

وهو يرسم مدينته الفاضلة في المحاورة نفسها، فيطالب بإلغاء الملكية الخاصة، وإحلال المشاعية بدلاً منها، بما فيها مشاعية النساء والأطفال، فمن وجهة نظره فإن الملكية الخاصة تعمل على تدمير وحدة المجتمع، بما في ذلك ملكية الزوجة، "فالتنافس على الزوجات يغذي الشعور السيّئ بين الرجال ويسبب الشقاق والدمار بالطريقة ذاتها، لأنه لون

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، ص ٨٢.

خاص من الملكية»[١]. عندها لن يكون هناك أسرة، وستتولى الدولة تربية الأطفال.

إذن، ما الدور الذي ستقوم به المرأة؟...

وجد أفلاطون الحل بأن يحيل المرأة إلى رجل، فهو يرى أن الاختلاف بين طبيعة المرأة وطبيعة الرجل هو اختلاف لفظي فحسب، فإذا جردت المرأة من عاطفتها ورقة مشاعرها، وإذا ما مارست التدريبات الرياضية عارية تماماً كالرجال ومع الرجال، وتدربت على حمل السلاح وركوب الخيل، بالإضافة إلى تربيتها الموسيقية والذهنية، فلن يكون هناك فارق بينها وبين الرجال سوى أنها تلد، ولن تكون المرأة مسؤولة عن طفلها، بل يجب ألا يسمح لها برؤيته، أو إرضاعه، حيث يوضع جميع الأطفال في مكان، وتأتي المرضعات ليرضعنهم دون أن يتعرفن على أطفالهن. من الواضح في محاورة الجمهورية أن أفلاطون كان متأثراً بالمجتمع الإسبرطي، ومعجباً به أشد الإعجاب.

هذه المساواة التي استبعدت طبيعة المرأة الفسيولوجية، وتجاهلت سيكولوجيتها، وأحالتها إلى رجل وكأن الرجل هو الكمال الذي تصبو إليه المرأة، وتعوض به نقصها، هذا

---

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، ص ٧٢.

أعجب الكثيرين وجعلهم يحتفون بأفلاطون، بل اعتبره البعض المطالب الأول في العالم القديم بحقوق المرأة ويمساواتها بالرجل. والحقيقة أن المتمعن في أقوال أفلاطون، يجد أنه لم يكن نصيراً للمرأة، وأن المساواة التي تحدث عنها لم تكن سوى إيجاد مهمة لها بعد أن جردها من مهمة الأمومة ورعاية الأسرة، أما مشاعية النساء التي صفق لها الكثيرون ومازالوا، لم تكن إلا تشييئاً لها، ومساواتها بممتلكات الرجل.

بعد أن وصلت به السنون لمرحلة الشيخوخة، لم يتخلَّ أفلاطون عن مدينته الفاضلة، ولم يتخلَّ عن إيمانه بالمثل القديم القائل: "كل شيء مشاع بين الأصدقاء"، لكنه يئس من تطبيقه بين البشر، فمن وجهة نظره "المثل الأعلى لايتناسب إلا مع الآلهة أو أبناء الآلهة"[(١)].

وهكذا يعود في محاورة القوانين ليبيح الملكية الخاصة، ويبيح تقسيم الأرض، ولتعود الأسرة من جديد، كما كانت، وتعود المرأة إلى زاويتها المظلمة، تقوم بمهامها المنزلية، وتنجب الأطفال للحفاظ على استمرار الحياة، وتبقى في نظر أفلاطون غير أهل للملكية، وتعود قوانين الإرث كما كانت

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، ص٨٢.

قبل محاورة الجمهورية، المرأة لاترث، ويتولى أمر ميراثها أي رجل يختاره والدها قبل وفاته، ليكون وصياً عليها وعلى أملاكها.

أما في التربية، فيذهب أفلاطون في محاورة القوانين إلى وجوب تدريب الفتيات على التمارين الرياضية، مسجلاً تراجعاً عما ذهب إليه في محاورة الجمهورية، إذ يمكن للفتيات القيام بالتدريبات وهن عاريات تماماً، أما بعد سن البلوغ فيجب عليهن ارتداء الملابس المناسبة، كما أن هذه التدريبات ليست من أجل الدفاع عن الوطن، فهي مهمة الرجال، ولكن من أجل الدفاع عن النفس وعن الأطفال في حالة الطوارئ.

وهو يسمح بالتعليم للفتيات، لكن يجب الفصل بين البنين والبنات بعد سن السادسة، ويجب على الذكور الاستمرار بالتعليم حتى يتقنوا ركوب الخيل والرماية واستعمال النبال والمقلاع، أما الفتيات فيترك لهن خيار الاستمرار في التعلم إذا أردن ذلك، دون إرغام.

ورغم أن هناك الكثير من المجالات في الدولة التي تتناسب مع طبيعة المرأة ويمكن لها أن تسهم بها بنجاح، إلا أن أفلاطون لم يأتِ على ذكرها، ولم يسمح للمرأة أن

تشارك من خلالها، وكأنه يقول -على حد تعبير الدكتور إمام عبد الفتاح إمام-: إذا أرادت أن تشارك الرجل فإن عليها أن تكون رجلاً، أو أن تكون على الأقل مسترجلة. وربما يعود ذلك إلى عدم اعتداد أفلاطون بعقل المرأة وفكرها، فهو يعتبر أن النضج العقلي للمرأة لا يكون إلا متأخراً، ويبدو ذلك من تحديد السن التي يمكن أن يتم فيها التعيين في الوظائف الرسمية، فهي سن الثلاثين بالنسبة إلى الرجل، وسن الأربعين بالنسبة إلى المرأة، والمهمة التي أوكلت للمرأة هي الإشراف على الزواج.

ويتأكد لنا ذلك من خلال حديثه عن الموائد المشتركة، والتي يدعو لها ويعيب على المجتمع الإسبرطي عدم مشاركة النساء فيها، فهذه المشاركة لا تعبر عن توجه نحو المساواة بين الجنسين، بل كي لا تبقى النساء بعيدات عن القوانين ونظامها، إذ يقول: "والحق أن نظام الموائد العامة على الرجال هو نظام رائع وهو هبة من السماء، ولكن الخطأ أن يترك النساء دون تنظيم يحدده القانون، فليس لهن نظام مماثل للموائد المشتركة التي توجد في وضح النهار، ولما كان هذا الجزء من الجنس البشري الذي هو بطبيعته أميل إلى السرية والتسلل نظراً لضعفه - وأقصد به جنس الأنثى- قد تركه المشرع الإسبرطي وحيداً بغير تنظيم، فإنه بذلك قد

ارتكب خطأً، ونتيجه لذلك نمت أمور كثيرة عندكم رخوة، وكان يمكن أن تكون أفضل لو أنها نظمت بواسطة القانون، لأن إهمال تنظيم جنس الأنثى ليس إهمالاً لنصف المجتمع فحسب، وإنما نظراً لأن طبيعة المرأة أدنى من طبيعة الرجل في قدرتها على الوصول إلى الفضيلة، فإن نتيجة هذا الإهمال تكون مضاعفة"(١). فهو يرى أن المرأة ناقصة من جميع الجوانب، والغريب أن هناك من يجد في ذلك دعوة إلى المرأة للمشاركة في الحياة العامة كما يراه "باركر"، ويجد فيه البعض تحريراً للمرأة، والواضح من تعليله لهذه الدعوة، أنها مزيد من الرقابة ومزيد من القيود.

وهو لايعطيها حقها في ممارسة حياتها كإنسانة راشدة عاقلة، فلا يحق لها الدفاع عن نفسها أمام المحاكم، "ستكون المرأة الحرة مؤهلة للإدلاء بشهادتها أمام المحاكم دون الدفاع إذا تجاوزت سن الأربعين. وإذا لم يكن لها زوج فإنها ستكون مؤهلة لرفع قضية. أما إذا كان لها زوج فستدلي بشهادتها فقط، وسيكون العبد من الجنسين أو الطفل مؤهلاً للإدلاء بشهادته أيضاً"(٢). فهو دوماً يضع المرأة مع الأطفال والعبيد.

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، ٩٤.
(٢) د. إمام عبد الفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، ص٩٩.

ونحن نجول في فكر أفلاطون نستشعر بترفعه عن المرأة وأحياناً بغضه لها، فهي في نظره "بندورا" التي جلبت الفساد. وهو يبغض الضعف، ويجده مجسداً في المرأة، فإذا ما قرأنا آراءه في الحب والزواج نجد أن الزواج في نظره "الطريق الذي يمارس فيه الجنس البشري الخلود.. فلا بد للرجل أن يؤكد الطبيعة الخالدة بأن يترك أطفالاً وأحفاداً ليخدموا الله من بعده"(١).

وفي أثينا انتشرت الجنسية المثلية، ربما أحد أسباب انتشارها هو ترفع الرجل عن المرأة، وغيابها عن حياته، فهي قابعة في ركنها المظلم، تنحصر اهتماماتها بالأعمال المنزلية وتربية الأطفال دون أن يكون للزوج أدنى مشاركة، كما أن فارق السن الكبير بين الزوج والزوجة الذي كان متعارفاً عليه آنذاك كان له دور في اتساع المسافة الفاصلة بينهما، على أي حال فإن الأعراف كما كانت تحتم على المرأة البقاء في المنزل، كانت تحتم على الرجل البقاء خارج المنزل في الأسواق وبين أمثاله من الرجال، الذين تتوثق بينهم العلاقات التي تتحول في أحيان كثيره إلى علاقات جنسية شاذة، لكن المجتمع لم يكن يراها بهذا الشذوذ.

---

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، ص٨٨.

لقد هاجم أفلاطون الجنسية المثلية واحتقرها، وهذا الهجوم لم يكن لصالح المرأة أو من أجل الجنسية المغايرة، بل لأنه كان يحتقر الجسد ولذاته وشهواته، وكان يحتقر الضعف، ويحتقر بالجنسية المثلية الجانب الضعيف فيها، فهو يقول في المأدبة: إن الحب الصادق هو الطريقة الصحيحة في محبة غلام. فهناك آلهتان تحملان اسم (أفروديت) إلهة الحب، أفروديت سماوية، هي ابنة أورانوس (السماء)، ولا أم لها، وهي الأخت الكبرى، وهناك أفروديت الصغرى ابنة (ديون Dion)، من زيوس وهي أفروديت العامية، وجاءت إلى الوجود نتيجة اتصال جنسي بين الذكر والأنثى، وهي أصغر من أفروديت السماوية، فهي راعية هذا الضرب من الحب بين الرجل والمرأة، وهو ما يلمس من رعونة الشباب ونزقه.. أما أفروديت السماوية التي ينسب إليها النوع الممتاز من الحب فلا أثر فيها للأنثى، وإنما جاءت من الذكر وحده كما أنها الأكبر سناً، أعني أنها بريئة من نزق الشباب وطيشه. فمن يعمر قلبه الحب السماوي يميل إلى الذكور دون الإناث، فالذكر بالطبيعة أقوى وأذكى»[1].

---

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، ص ١١٣.

ونرى كراهية أفلاطون لأي اتصال جنسي، فهو يقول أيضاً في المأدبة: "فالرجل الفاسد هو الذي يتجه إلى الحب العامي؛ أعني عشق الجسد لا الروح، سواء أكان هذا الجسد لامرأة أو لغلام، فهو ليس مخلصاً في حبه، ولا بثابت على عهده، لأن ما يعشقه ليس بثابت. فعندما يذبل جمال الجسد ينصرف بحبه إلى جسد سواه، وتتبخر وعوده وعهوده وكأنها أحلام، أما المحب النبيل فهو يبقى على حبه ما بقي على قيد الحياة، لأن ما يهواه باق ما بقيت الحياة"(١)

أما سقراط فيؤكد أفكار أفلاطون ويقول في المأدبة: "إن أولئك الذين تتجه غريزتهم الخلاقة اتجاهاً جنسياً يجعلون همهم النساء، ويكون حبهم جنسياً محضاً، وتراهم يحسبون أنهم يضمنون لأنفسهم الخلود بإنجاب الأطفال. لكن هناك غيرهم تكون ميولهم الخلاقة روحية، ويحملون بالروح لا بالجسد، ويخلقون ذرية روحية هي الحكمة والفضيلة"(٢)..

من الواضح أن أفلاطون وسقراط يعتبران أن الحياة الراقية والمنتجة هي الحياة الخالية من وجود المرأة، وأن

---

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، ص ١١٣.
(٢) د. إمام عبد الفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، ص ١١٦.

دور المرأة في استمرار الحياة البشرية، هو أقل من دور الرجل الذي ينتج الحكمة والفضيلة، على حد تعبير سقراط.

ويمعن أفلاطون في التقليل من شأن المرأة، فيروي لنا قصة الخلق، حسب اعتقاده، في محاورة طيماوس، فهي من وجهة نظره خلقت ليس من ضلع الرجل، بل هي من الرجل في دورة حياته الثانية، لكن ليس أي رجل، "فمن قهر شهواته من الرجال وعاش فاضلاً على الأرض سوف يعود إلى أعلى حيث يسكن نجمه الأصلي.. لكن من فشل منهم واستعبدته شهواته وعاش شريراً رذْلاً.. فإنه سيتحول في ميلاده الثاني إلى امرأة.. فإذا لم ينصلح حاله بعد ذلك تحول إلى صورة حيوان يشابه طبيعة الشر الذي أتى منه.."(١).

١ - أرسطو

ويأتي أرسطو ليقنن آراء وأفكار وأقوال أستاذه أفلاطون، مستغلاً في ذلك علم البيولوجيا الذي ورثه عن والده وعمل به، فأضفى بذلك على معتقداته وأفكاره صبغة علمية، ليجعل هذه المعتقدات من الثوابت التي لاجدال فيها.

---

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، أفلاطون والمرأة، ص ١٢٠.

ومن وجهة نظر أرسطو فإن الطبيعة هي التي نظمت الكون تنظيماً تصاعدياً، (هيراركياً) يقول أرسطو: "استطاعتنا أن نقول: إن النبات موجود لصالح الحيوان، لكن الحيوان أيضاً موجود لصالح الإنسان، فالحيوانات المستأنسة موجودة لتأمين غذائه، أما الحيوانات البرية فهي موجودة من أجل كسائه، أو لكي يستخدمها أدوات متنوعة، فإذا كانت الطبيعة لا تفعل شيئاً باطلاً ولا شيئاً ناقصاً، فلا بد أن نستدل من ذلك أنها أوجدت كل شيء لصالح الإنسان"[1]. وهذا ينسحب على البشر، فهناك تمايزٌ بين الشعوب، "فشعوب الشمال الجليدي وأوربة شجعان، لهذا لا يكدر عليهم أحد صفوة حريتهم، ولكنهم عاطلون عن الذكاء والمهارة، والأنظمة السياسية الجيدة، لهذا نراهم عاجزين عن التسلط على جيرانهم، أما الشرقيون فيمتازون بالذكاء والمهارة، ولكنهم خلو من الشجاعة، ولهذا نراهم مغلوبين على أمرهم، مستعبدين إلى الأبد، وأما الشعب اليوناني فيجمع بين الميزتين، الشجاعة والذكاء، كما أن بلده متوسط الموقع، ولهذا نراه يحتفظ بالحرية ولو أتيحت له الوحدة لتسلط على الجميع"[2]. وهذا النظام التصاعدي

---

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، أرسطو والمرأة، ص ٢٩.

(٢) د. إمام عبد الفتاح إمام، أرسطو والمرأة، ص ٢٩.

أوجدته الطبيعة أيضاً بين المرأة والرجل وبين النفس والجسد، فالأدنى يعمل لصالح الأعلى، وهي سيطرة الأسمى على الأدنى، وفي ذلك مصلحة الاثنين. ويرى أرسطو أن الأشياء تكون دائماً على ما هي عليه بسبب تأدية وظيفتها، إذ يقول في كتاب السياسة محدداً تعريف الأشياء: "كل شيء يستمد تعريفه من وظيفته، وقدرته على تأديتها، وينتج عن ذلك أنه مالم تكن الأشياء قادرة على تأدية وظيفتها، فلا ينبغي علينا أن نقول: إنها لا تزال هي نفسها الأشياء، حتى وإن كانت لا تزال تحمل الأسماء ذاتها.."(١).

ونصل مع أرسطو إلى أعلى سلم الهيراركية، حيث يتربع الإنسان، فهو يحاكي الآلهة بقدرته العقلية، وقدرته على التحكم بعقله وسلوكه، ويختلف عن الآلهة بأنه يصرف حياته في سبيل تحقيق سعادته وهي تصرف حياتها في التأمل العقلي من أجل الآخرين.

يتضح لنا أن هذا الإنسان أو "الموجود البشري Anthropos" ما هو إلا "الرجل اليوناني الحر" أي القله القليلة من البشر، وظيفتهم التأمل العقلي الخالص، "وهؤلاء

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، أرسطو والمرأة، ص٣٣.

يحتاجون إلى ثروة وأصدقاء، ووقت فراغ، ونبالة مولد"[(١)] ويحتاجون إلى خدمة الآخرين، والآخرون هم النساء والعبيد، والتجار والحرفيون، هذا حكم الطبيعة، وهو حكم عادل من وجهة نظر أرسطو، للحاكم والمحكوم معاً، فكلٌ أخذ الدور الذي يتناسب مع قدراته وإمكاناته، معارضاً آراء السفسطائيين الذين ذهبوا إلى أن الأوضاع الاجتماعية والقيم الأخلاقية السائدة هي وليدة الأعراف والعادات.

ويأتي رد أرسطو على السفسطائيين في (الخطابة) مفسراً وجهة نظره، فيقول: الأمر بالنسبة إلى العادات، لأن ماصار عادة يصير طبعياً بوجه ما، والواقع أن العادة شيء شبيه بالطبيعة، لأن المسافة (غالباً، ودائماً) ليست كبيرة، والطبيعة تنسب إلى فكرة (دائماً)، والعادة إلى (غالباً)...[(٢)].

ويستمر أرسطو في تقسيماته، فكل شيء في اعتقاده يتكون من مادة وصورة، فالمادة هي الهيولى أو العجينة، والصورة هي التي تعطي للمادة جوهرها وماهيتها، فهي الأرقى وهي الأكثر أهمية.

ومن خلال هذا التقسيم يظهر تفوق الذكر على الأنثى،

---

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، أرسطو والمرأة، ص٣٥.
(٢) د. إمام عبد الفتاح إمام، أرسطو والمرأة، ص٣٦.

إذ يعرف أرسطو في كتابه (توالد الحيوان) الذكر والأنثى بقوله: "يختلف الذكر في تعريفه عن الأنثى بما له من ملكات خاصة، فنحن نعني بالذكر ذلك الذي ينسل في الآخر، ونعني بالأنثى تلك التي تنسل من داخل ذاتها بحيث يخرج النسل من باطنها، وهو النسل الذي كان موجوداً في الناسل من قبل، فالذكر هو الذي يقدم (الصورة) و(العلة) ومبدأ الحياة أو الروح التي هي مستمدة من الآلهة، والنفس للجنين، أما الأنثى فإن مساهمتها تنحصر بالمادة المستخدمة في هذه العملية وهي دماء الطمث.

أما تحديد نوع الجنين، فيتم في نفس اللحظة التي يحدث فيها الجماع، وتتشكل أجزاء الجنين الجنسية بعد ذلك استجابة لحاجة الكائن الحي إلى هذا العضو أو ذاك[١]. فإذا كان الذكر هو العنصر الغالب على الأنثى غلبةً تامةً جاء الجنين ذكراً، وإذا كانت الأنثى هي العنصر الغالب جاء الجنين أنثى تشبه أمها، وفي جميع الحالات فإن الذكر هو الذي يقدم الصورة؛ وهي الروح التي تعطي الجنين المعنى والحياة. إن الوظيفة الأساسية الكاملة للتوالد هي إنجاب طفل يشبه الأب، وأي انحراف عن هذا الشبه يعد قصوراً.

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، أرسطو والمرأة، ص٥٥.

يعتبر أرسطو المرأة ضعيفة وعاجزة، إذ يقول في كتابه (أجزاء الحيوان): أنبل الحيوانات جميعاً تلك التي تكون دماؤها حارة، أعني ذوات الدم الحار الذي يكون في الوقت نفسه صافياً، لأن مثل هذا الدم يتناسب مع تطور الشجاعة والذكاء.. ومن هذه الزاوية نجد أن الأجزاء العليا أرقى من الأجزاء السفلى، كما نجد أن الذكر أرقى من الأنثى"[1].

فهو يقدر بأن درجة حرارة المرأة أقل من درجة حرارة الرجل، وأن المرأة هي ذكر واهن، أو ضعيف، لأن الأنثى لا تكون أنثى إلا من خلال عجز معين، بل إن مولدها كأنثى هو انحراف في عملية التوالد، وأن الكمال هو الذكر. وهذا يعود إلى المبدأ الميتافيزيقي الخاطئ الذي ينطلق منه أرسطو في تأملاته، ولا نقول أبحاثه، لأنها لاتعتمد على البحث العلمي الدقيق ولا على الموضوعية العلمية، بل نجده يتغاضى عن الكثير من الحقائق السافرة في سبيل إثبات معتقداته الموروثة وجعلها حقائق مقبولة، بإعطائها صفة العلمية.

ودور المرأة بالأسرة من وجهة نظر أرسطو، هو أن يأمر الزوج وتطيع الزوجة، ومبرراته تنبع من نظريته الهيراركية،

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، أرسطو والمرأة، ص٦٤.

ومن تصنيفه للمرأة بأنها أقل مرتبة من الرجل، وأنه يغلب عليها الجانب اللاعقلي، كما أنها غير قادرة على ممارسة فضائل الرجل. فهو يخضع الأخلاق إلى سلم الهيراركية، وقد حدد أرسطو واجبات فرضها على المرأة، تنحصر في إطاعة الزوج، والحفاظ على منزله وأمواله، والقيام بالواجبات المنزلية على أكمل وجه.

لقد لا حظنا كم جانبت الموضوعية والدقة العلمية هؤلاء الفلاسفة الثلاثة، والذين مازالوا في القمة إلى يومنا هذا، لقد غلفت عقولهم ومشاعرهم بوصفهم رجالاً غشاوة التفوق والشعور بالتميز، وكانت حاجزاً مانعاً عطل نصف طاقة المجتمع، وأثراً سلبياً على النصف المتبقي، فالمرأة هي الأم وهي مربية الأجيال، مع حليبها يرضع الطفل الكثير من الصفات، ومع خطواته الأولى تتكون شخصيته التي يجابه بها العالم، فهي من يزرع به الكثير من المبادئ، ومنها يتعلم الجبن أو الإقدام، وفاقد الشيء لا يعطيه، والمرأة الجاهلة ستكون وبالاً على زوجها وعلى أبنائها والصورة التي رسمها الفلاسفة للمرأة، كانت نتيجة ما فرض عليها من جهل، وليست من طبيعة تكوينها، وهذا مالم يحاول الفلاسفة الاقتراب منه، كي يحافظوا على شعورهم بالتفوق، ولو على حساب تأخر المجتمع.

٣ - أثر هؤلاء الفلاسفة في المجتمعات

نستطيع رصد أثر الفلسفة اليونانية ممثلة بأفلاطون وأرسطو وسقراط من خلال أقوال بعض رجال الدين المسيحيين والمسلمين، التي لا تختلف عن رأي هؤلاء الفلاسفة، والتي تتعارض مع مبادئ الدين وتعاليمه، لكنها لاقت هوىً في نفوس هؤلاء الرجال، ولم تنكره العامة، ولن نقول إن ما جاء به رجال الدين بالشيء الجديد، بل هو في ضمير المجتمعات يظهر ويختفي أو تزداد حدته وتنقص تبعاً للظروف، فمثلاً قبل مجيء المسيح كانت تسود المجتمعات اليهودية النظرة الدونية للمرأة، وجاءت المسيحية لتعلي من شأنها، بل بدا تكريم المرأة من خلال اصطفاء الخالق للسيدة مريم دون الرجال لتكون والدة السيد المسيح، ثم أعادها رجال الدين المسيحيون إلى ما كانت عليه من الدونية، وألصقت بها التهم التي جعلت منها سبب مصائب البشر. ويتجلى فكر أرسطو ونظريته الهيراركية في أقوال القديس توماس الإكويني، الذي أنزل المرأة منزلة الرقيق إذ يقول: "إن المرأة خاضعة للرجل لضعف طبيعتها، الجسمية والعقلية معاً.. والرجل مبدأ المرأة ومنتهاها، كما أن الله مبدأ كل شيء ومنتهاه، وقد فرض الخضوع على المرأة عملاً بقانون الطبيعة، أما العبد فليس كذلك.. ويجب على الأبناء أن

يحبوا آباءهم أكثر مما يحبون أمهاتهم"[١]. أما المجتمع الإسلامي فهو خليط من أجناس شتى، تفاوتت مكانة المرأة فيه قبل الإسلام، حتى في الجزيرة العربيه أرض الرسالة، لم تكن جميع القبائل العربية متساوية في نظرتها للمرأة، ووصلت منزلة المرأة في بعض القبائل العربية أن تساوت مع متاع الرجل، وجاء الإسلام ليرفع من شأنها، ويوصي بها خيراً، ويقول الرسول الكريم ﷺ في حجة الوداع قبل وفاته: ".. واستوصوا في النساء خيراً فإنهن عندكم عوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت..". ورغم ذلك نجد أن المجتمعات الإسلامية تتغاضى عن كل ذلك لتعيد المرأة إلى ركن مظلم في المنزل، والبعض يحرم حتى تعليمها، بدعوى أنها خلقت للمنزل، والعمل المنزلي وتربية الأبناء ليس بحاجة إلى العلم، مكتفين بإتقانها الشؤون المنزلية من إعداد طعام وتنظيف وسواه من احتياجات المنزل، مستهينين بتربية الأبناء وما يحتاجونه من وعي وعلم، هي عاجزة عن إعطائهما، وتذهب أهم سنوات

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ١٦/ ١٨٧، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، بيروت.

الطفل دون رعاية عقلية أو فكرية، فيخرج للمجتمع أقل استيعاباً للعلم، وأقل تفاعلاً مع قضايا مجتمعه، ويصبح المجتمع أقرب إلى الجهل منه إلى العلم حتى لو توافرت الإمكانات لتعليم الذكور بأرقى الجامعات. كما نجد أن الكثير من المجتمعات الإسلامية تحرم المرأة من حق الانتخاب كأنها عضو غير كامل في المجتمع أو غير معترف به، وهي بالطبع محرومة أيضاً من الترشيح، رغم ضرورة وجودها، إذ إن الرجل قاصر عن الإلمام بكل قضايا المجتمع، فهناك الكثير من الأمور الاجتماعية الأقرب إلى المرأة منها إلى الرجل، وتستطيع طرحها ومعالجتها بدراية أكثر من الرجل. ومن الظلم الواقع على المرأة في بعض المجتمعات الإسلامية، عدم قدرتها على إدارة أملاكها بنفسها دون وساطة الرجل، أو عدم استطاعتها السفر دون موافقة أحد محارمها، وأعجب من ذلك عدم وضع صورتها على الهوية، أو جواز السفر. ورغم أن المرأة المسلمة في صدر الإسلام والقرون التالية كانت تقود الخيل، نجد من يمنعها من قيادة السيارة، بل إن خولة بنت الأزور شاركت في المعارك فارسة تخللت صفوف الأعداء في موقعة أجنادين، فأدهشت المقاتلين، وفي مقدمتهم القائد خالد بن الوليد، ولم تجد من يمنعها من ركوب الخيل، أو يحرم

عليها الدخول بين صفوف الأعداء طالباً منها أن تكون برفقة محرم، بل لم تجد إلا الثناء، وهذا أكبر دليل على مغالاة المجتمعات الإسلامية المعاصرة في إحكام القيد على المرأة، ولو عدنا إلى العقل والقياس، لوجدنا قيادة المرأة للسيارة أفضل من تنقلها مع السائق وهو غريب عنها. ولنا عودة للمرأة في الإسلام لنوازن بين التشريع الرباني والتشريع البشري.

- **خامساً - دور الأدب في نظرة المجتمع للمرأة**

رغم الدور الريادي للأدب في عملية إصلاح المجتمع وتخليصه من شوائبه، إلا أن الأديب في كثير من الأحيان لا يستطيع تجاوز مفاهيم مجتمعه، فتظهر تلك المفاهيم والمعتقدات في أعماله الأدبية، فلو رصدنا ذلك في قصص الأطفال، سنجد أن البطلة لا بد أن تتمتع بجمال باهر، ورقة وأدب فائق، لكنها ضعيفة تنتظر الرجل وهو أمير في غالب الأحيان وقوي لينقذها ويطير بها إلى قصره لتنعم بالسعادة والهناء، وهي أيضاً ابنة الملك التي يهبها مكافأة لمن يقوم بأعمال خارقة، وأحياناً هي زوجة أب وساحرة شريرة، وسوى ذلك لم تشتهر بطلات قصص الأطفال؛ كأن تكون أماً معطاءة يظهر دورها من خلال أبنائها الذين نهلوا من

وعيها وعلمها، أو فتاة قوية حكيمة تعمل جنباً إلى جنب مع الرجل لبناء المجتمع، أو تظهر ملامحها أكثر عمقاً وإيجابية، تتسم بالحكمة والعلم بدلاً من الجمال والضعف.

أما في أدب الكبار، فلم يبتعد كثيراً عن أدب الأطفال، في رسمه لصورة المرأه، فهو صورة من قصص الجميلة النائمة، " لقد عمدت الطبيعة في تكوين إنيد إلى كل ما لديها من حذق، ودهشت الطبيعة خمس مئة مرة من نجاحها في إبداع هذا المخلوق الكامل "[1] مغالاة في وصف جمال الحبيبة ورقتها، مغرقة بوصف المشاعر والوجدان والتضحية من أجل الحبيب، تصل إلى أن تتحول تلك الحسناء الرقيقة إلى متعطشة للدماء لايضاهيها أعتى المجرمين، كما حدث مع كريمهلد في قصص النيبلنجلنيد، فبعد أن تآمر إخوتها على قتل زوجها وحبيبها استطاعت أن تنصب لهم كميناً قضت به على كامل عائلتها وعلى حاشية إخوتها، إذ تحول الجمال الخارق والرقة البالغة إلى إجرام وسفك للدماء لا حد له[2]. صور مغرقة بالخيال، بعيدة عن الواقع، تختصر

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة ١٧/ ٢٨٣، ترجمة محمد بدران، دار الجيل - بيروت.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص٢٥٨.

المرأة بكل ما تملك بالجمال والرقة، وتحصر دورها في هذه الحياة بالحب وبإسعاد الحبيب، والتضحية من أجله.

أما إذا اتجهنا إلى الشرق، فلا بد أن نبدأ بـ(ألف ليلة وليلة)، تلك القصص التي اشتركت عدة شعوب شرقية بصياغتها وتقديمها للعالم:

تتميز ألف ليلة وليلة بأنها تظهر منذ البداية كيد النساء، وقدرتهن على الوصول إلى غايتهن بحكمة ودهاء، وتبدأ القصة باكتشاف الملك شاه زمان خيانة زوجته له، ثم باكتشاف خيانة زوجة أخيه الملك شهريار، بل يكتشفا عجز الرجل أمام المرأة إن أرادت فعل شيء، من خلال ماشاهداه من قصة الجني المارد الذي حبس فتاته وهي من بني البشر في صندوق في قاع البحر، ومع ذلك استطاعت تكرار خيانته أكثر من سبعين مرة. وعلى أثر ذلك قرر شهريار أمام شعوره بالضعف أمام المرأة أن ينتقم من جميع النساء، بأن يتزوج الفتاة لليلة واحدة ثم يأمر بقتلها، وهكذا فعل إلى أن كاد أن يقضي على فتيات مملكته، وكان أن تطوعت ابنة الوزير لوضع حد لشذوذ هذا الملك، وإنقاذ بنات جنسها من ظلمه، وكان سبيلها إلى ذلك - كما تقول الرواية - علمها الواسع، إذ قرأت ألف كتاب من كتب التواريخ المتعلقة بالأمم السالفة

والملوك الخالية والشعراء، ثم بحكمتها وذكائها وبما تملك من أسلوب جذاب وشائق في رواية الأحاديث والقصص. وطلبت من أبيها أن يزوجها من الملك، وأمام إصرارها وافق أبوها وزوجها من الملك، وبدأت منذ الليلة الأولى تسحر الملك بعلمها، وبنور عقلها مما جعله يؤجل قتلها، وليلةً تلو أخرى إلى أن عدل عما كان قد عاهد نفسه عليه من انتقام، وفازت هي بقلبه، وأنقذت بنات جنسها من بطشه. وقد تضمنت قصص ألف ليلة وليلة، نماذج نسائية رائعة، تتميز بالعقل والحكمة، والقوة والاعتداد بالنفس، وعشق للحرية، كقصة الحسن البصري(١)، الذي وقع بغرام ابنة ملك الجان وخطفها وتزوجها، بعد أن حرمها من الطيران بإخفاء ثوبها السحري المصنوع من الريش، ورغم أنها أحبته وأحبت والدته، وأنجبت منه طفلين، إلا أن كل ذلك لم يجعلها تنسى حريتها وانطلاقها، فما كان منها إلا أن استخدمت مكرها وحيلتها في سبيل أن تستعيد حريتها، واستطاعت أن تستعيد ثوبها وتخطف أبناءها تاركة عنوانها لزوجها إن أرادها فليقبل بها حرة طليقة، فالمرأة وإن كانت تنشد الاستقرار والحب إلا أن ذلك لايكون على حساب كيانها وحريتها.

---

(١) هو شخصية خيالية غير موثقة، كشخصيات ألف ليلة وليلة، ولا تمت بأي صلة للحسن البصري التابعي الجليل.

لقد كانت الترجمة الأولى لألف ليلة وليلة عام ١٧٠٤ إلى الفرنسية، ترجمها الفرنسي أنطوان كالاند، ومنها ترجمت إلى غالبية اللغات الأوربية، ولاقت رواجاً منقطع النظير، وسبب ذلك الرواج ما كانت تحمله تلك القصص من مغامرات وقصص غرام، ومن وصف ساحر للنساء ومفاتنهن، بل إن تلك المشاهد المثيرة طغت على شخصية شهرزاد وحكمتها، فلم يلتفت أحد إلى ذكائها وقوة شخصيتها، ولم يبقَ من شهرزاد إلا غانية جميلة ترقص وتغني بلباس يشف عن مفاتنها، وبذلك لا تشذ عن الصورة التي أرادها لها صناع السينما والفن في هوليوود. وربما هذا يقودنا إلى تأكيد ما قلناه سابقاً من أن عبادة القوة هي الأساس في الحط من شأن المرأة، إن شهرزاد تنتمي لشعوب أكثر ميلاً للسلام، لذلك كان هناك تقدير للحكمة والذكاء، ومن ثم لم يطغَ جمال بطلات قصص ألف ليلة وليلة على ذكائهن وفطنتهن، وعندما انتقلت شهرزاد وبطلاتها إلى الغرب الذي مازال يقدر القوة، جردت من ذكائها وحكمتها، وجرى التركيز على مفاتنها، فجاءت منسجمة مع صورة المرأة في الإعلام الغربي رغم مايفخر به الغرب من حصول المرأة على حريتها واستقلالها.

وفي الأدب الغربي، نجد موليير على سبيل المثال في القرن السابع عشر؛ ذلك القرن الذي شهد بدايات عصر

التنوير والحداثة، نجده يجعل من النساء مادة للسخرية، يتهكم على اتجاههن للعلم واهتمامهن بالثقافة والمعرفة، من خلال مسرحياته "النساء العالمات" و"البليدات النادرات" و"مدرسة النساء"، وفي ملهاة "مدرسة الأزواج" يقول موليير على لسان إيزابيل: "إنني أقوم بخطة جريئة أعلى من مستوى الأنثى" في إشارة إلى تدني ذكاء المرأة، رغم أن المسرحية هي دعوة للمجتمع لإعطاء المرأة حريتها وإلى عدم التشديد عليها بالرقابة، لكن الحرية التي يدعو إليها ليست إلا حرية اللهو والمرح والسهر.

وفي عصرنا الراهن، نجد أن تأثير الفن والأدب تعاظم، ومازال ومازالت السلبية تحيط بكل ما يتعلق بالمرأة، وهذا ما سنعود إليه لاحقاً.

- **سادساً - أثر فرويد وعلم النفس التحليلي في مكانة المرأة**

لم يكن حال المرأة في القرن التاسع عشر أفضل حالاً من أختها في القرون السابقة، كانت ماتزال النظرة الدونية تحاصرها، لم يكن ينظر إليها على أنها كيان مستقل له خصوصيته، وله دوره الهام في الحياة، له مقاييس خاصة

للنجاح والفشل، وله مساحته الإبداعية الشاسعة التي لاينافسه فيها أحد، بل كان ينظر إليها من خلال مقاييس الرجل ذاتها، فتبدو كأنها رجل ناقص أو معاق، أو هي رجل شائه.

وكأي إنسان تواق إلى النجاح والتفوق في حياته، ويسعى إلى الكمال، كذلك كانت المرأة. لكن مفاهيم عصرها كانت تضع هذا النجاح ضمن مقاييس ذكورية خاطئة، وتنظر إلى الكمال على أنه الرجل بعينه. هذه المفاهيم تشربتها المرأة وصدقتها، وشعرت بتشوهها من الداخل، شعور كان مصاحباً بمعاناة كبيرة، معاناة جعلتها تغفل عن حقيقتها، وتضل الطريق الذي كان يجب عليها أن تسيره في سبيل تحقيق مكانتها الحقيقية، وانشغلت بترميم هذا "التشوه"، فظهرت نوعيات من النساء كلٌ تحاول بطريقتها أن تقاوم نقصها الذي أقنعها به المجتمع، والقليلات اللاتي نجحن في تجاوز محنتهن هذه.

في هذه الأجواء التي تخيم عليها النظرة الدونية للمرأة، ولد سيغموند فرويد مبتدع علم النفس التحليلي، وكما أن أرسطو قنن أفكار مجتمعه التي روج لها من قبله أستاذه أفلاطون، كذلك فعل فرويد، الذي لم يتجاوز عصره،

وأطلق نظريته التي أعطت مفاهيم مجتمعه عن المرأة صورة علمية، مما أدى إلى تثبيتها وتحصينها داخل المجتمعات. فأصبحت المرأة "مشوهة بمرسوم علمي: إنها ضرب من نصف موجود، ضرب من رجل غير تام، محكوم عليها بالضغينة إزاء وضعها وبالغيرة إزاء الرجل، مالك العضو المذكر"(١). لقد أوصل فرويد المرأة إلى طريق مسدود، عندما أطلق قنبلته، معتبراً إعاقة المرأة هي إعاقة طبيعية بيولوجية. لقد وضعها تحت المجهر، وأخذ، يعلل كل عاطفة من عواطفها وكل ردة فعل تقوم بها، ويرده إلى شعور بالنقص وبالرغبه الدفينة بأن تصبح رجلاً، فجعل كل ماتقوم به المرأة من أفعال طبيعية، وتختلف به عن الرجل، ماهو إلا تأكيد لدونيتها، ونقصها، وأنه أحد أسباب احتقارها لنفسها، ولبنات جنسها واحتقار المجتمع لها. حتى وصل إلى الأمومة التي هي غاية كل أنثى، فإذا به يعزو شعور المرأة بالسعادة عند إحساسها بالحمل، إلى رغبتها في عضو الذكر كالرجل، ويعتقد أن الرغبة الأساسية لكل امرأة أن يكون لها طفل ذكر. ويصبح هذا الابن بديلاً لما لم تستطع الأم أن تكونه. ومن ثم

---

(١) بير داكو، المرأة؟ بحث في سكيولوجية الأعماق، ترجمة وجيه أسعد، ص ٦٣.

تنقل الأم إلى ابنها التطلعات المذكرة التي لم تستطع تحقيقها. وكما صدقت كثير من النساء معتقدات مجتمعاتهن بأن الرجل متفوق بالفطرة، كذلك اعتقدت الكثيرات بنظرية فرويد وصدقنها على أنها واقع لافرار منه، وإلى يومنا هذا مازالت الكثيرات معتقدات بتلك النظرية التي ألقت بظلالها على الكثير من المثقفين والمثقفات.

والنتيجة

١- أننا نجد من النساء من يعترفن بالضعف والنقص والتبعية، ويستسلمن لليأس من أن ينظر إليهن نظرة فيها سمو وخالية من النقص، كما ينظر للرجل، فهن مشوهات، مخصيات كما حلل فرويد، ومن ثَمَّ فإن الإحباط لايمكن أن ينتج عنه إلا الفشل.

٢- وهناك فريق من النساء كن أكثر تحدياً أو أكثر صلابة فقررن أن يصبحن رجالاً، ومن ثَمَّ اندفعن إلى العمل الشاق الذي كان حكراً على الرجال، وابتعدن عن الاهتمامات الأنثوية، وقاومن صفات الأنثى من نعومة ورقة، وتقمصن طبيعة الرجل الخشنة القاسية، فنجدهن سائقات لشاحنات أو حافلات نقل عمومي، أو في حفرةٍ يشاركن عمال الحفر مهنتهم الشاقة، ننظر إلى

العاملة منهن نكاد لا نلمح أثراً لأنوثتها، ونجد بعضهن يفاخرن بكونهن اخترقن الحاجز الذي يميز الذكر عن الأنثى، معتقدات أنهن بذلك حققن النصر والمساواة، وبذلك يكن خسرن أنوثتهن ولم يصبحن إلا رجالاً مشوهين. وهؤلاء ربما لايكون سلوكهن عن وعي كامل، بل هو رفض لأنوثتهن، التي جعلها المجتمع عائقاً أمام أن يكون لهن دور فعال، أو طموح يسعين إليه، ويحققن ذاتهن من خلاله. ورغبة حقيقية داخلية في أن يشعرن بترحيب المجتمع بهن، ويحُزنَ على ميزات الذكر.

٣- وبعضهن نصبْن العداء للرجل، وجندن أنفسهن لذلك، متغافلات عن الخسارة التي يتكبدها المجتمع نتيجة ذلك العداء، هادرات طاقاتهن في حرب كان الأحرى بها أن تكون في طريق تغيير المفاهيم الخاطئة عن المرأة، وفي سبيل أن تستعيد المرأة مكانتها الطبيعية، وتقوم بأداء دورها في رفعة المجتمع.

لم يكن فرويد وحيداً، اعتقد الكثيرون بتحليلاته هذه، جاعلين من الفروقات البيلوجية بين المرأة والرجل سبباً في تدني منزلة المرأة، ومازال الكثيرون يتبعون خطاه إلى يومنا

هذا، وظهر تأثيره واضحاً في نتاج المثقفين والأدباء، ونصب العداء بين الرجل والمرأة، وأوصل قضية تحرر المرأة إلى طريق مسدود .

ولم يكتفِ فرويد بتحليلاته هذه بل نسب كل مايصيب الإنسان من نقص أو عقد نفسية معطلة لإبداعه إلى الكبت الجنسي، وجعل من عنصر الجنس أساساً لكل ما يتعرض له المجتمع من تطور أو تراجع. فمن خلال تحليله لمفهوم القمع، اعتبر " أن المعايير الأخلاقية على وجه الخصوص هي التي - بسبب مالها من مقتضيات وما بها من صرامة - تؤدي إلى نشأة الأمراض العقلية الخاصة بالأزمنة الحديثة "[(١)]. مؤكداً أن الدافع الجنسي بالأخص يلقى معارضة قوية من جانب الحضارة والأخلاق والدين. وينجم عن هذا الصراع تضييق شديد يطول الجنسية التي تصبح قائمة في نهاية الأمر على التوالد داخل العائلة. وكما فعل مورغان أو اعتماداً عليه رسم فرويد ثلاث مراحل للتقييد الجنسي "حين نعود إلى تاريخ تطور الدافع الجنسي، يمكننا التمييز بين ثلاثة أطوار من الحضارة: كان نشاط الدافع الجنسي،

---

(١) مفهوم القمع عند فرويد وماركوز، محمد الجوه، ترجمة فتحي الرقيق، ص ٥٤، دار الفارابي - بيروت.

في أثناء الطور الأول حراً وبعيداً حتى عن أهداف التكاثر. وفي الطور الثاني يقمع كل ما له اتصال بالدافع الجنسي باستثناء ما يخدم التكاثر، ويكون التكاثر البشري أثناء الطور الثالث، هو الهدف الجنسي الوحيد. وتوافق هذا الطور الأخير مع أخلاقنا الجنسية المتحضرة الراهنة".

ويتهم فرويد الحضارة والمجتمعات المتحضرة بقمع الجنسية المثلية ومنع الإشباعات غير التناسلية بوصفها موسومة بالشذوذ. وهذا في رأيه السبب " فيما أصاب حياة الإنسان الجنسية من غبن صريح"(١).

ويعتبر فرويد أنه يترتب على القمع الجنسي نتائج نفسانية وخيمة على النمو العقلي والعاطفي للفرد. ويضرب مثلاً بقمع الدافع الجنسي لدى الفتاة. "إن له من القوة بما يولد حاله من الصد العقلي. فبسبب ما يتلقاه النساء من تربية يعشن وضعية يمنعن فيها من التعبير عن فضولهن الجنسي. فيحذرن من الاهتمام بالمسائل الجنسية ويبقين على حالة من الجهل و"التزييف" بإقناعهن بأن مثل ذلك الاهتمام يتعارض والأنوثة، ومن هنا يقع إخافتهن من التفكير. ذلك أنني أرى

(١) مفهوم القمع عند فرويد وماركوز، محمد الجوه، ترجمة فتحي الرقيق، ص ٧٧، دار الفارابي - بيروت.

أن النقص العقلي لدى الكثير من النساء والذي في الحقيقه لا يقبل النقاش يجب أن يعزى إلى الصد الفكري اللازم للقمع الجنسي"(١).

ويجعل فرويد صراعاً بين النساء والحضارة "فكلما ينقاد الرجال إلى الانهماك في المهام الاجتماعية ويوزعون تبعاً لذلك ما لهم من ليبيدو بشكل غير متساو وجائر يؤدي ذلك إلى استياء النساء وعدائهن للحضارة"(٢).

ويسير بنا فرويد إلى موضوع نكاح المحارم، فيقول: "يتعرض اختيار موضوع محرمي لأعنف منع وهنا يكمن أشد تشويهات الكائن الإنساني مأساوية وأبعدها أثراً فيه"(٣). فكان ينظر للمرأة من خلال وظيفتها الجنسية.

"ليس للمجتمع خيار آخر مادام أن شرط وجوده يتوقف كلياً على منع نكاح المحارم، ويؤول مجال الحرية الجنسية

(١) مفهوم القمع عند فرويد وماركوز، محمد الجوه، ترجمة فتحي الرقيق، ص ٥٩، دار الفارابي - بيروت.
(٢) مفهوم القمع عند فرويد وماركوز، محمد الجوه، ترجمة فتحي الرقيق، ص ٧٦، دار الفارابي - بيروت.
(٣) مفهوم القمع عند فرويد وماركوز، محمد الجوه، ترجمة فتحي الرقيق ص ٧٦، نشر دار الفارابي - بيروت.

بسبب المقتضيات والممنوعات الاجتماعية إلى حال على غاية من التعقيد"(١)

ومع ذلك وبعد هذه الإيحاءات فإن فرويد رفض تقديم أي مشاريع إصلاحية مادامت أنها تبدو له بمنأى عن اختصاص الطبيب (٢). والواقع أن نظرياته وتحليلاته ليست بحاجة إلى نصائح مباشرة، بل جاءت هذه التحليلات:

أولاً: في أجواء تسودها المذاهب المادية، التي تدعو إلى المشاعية، وتحمل بداخلها بذور رفض نظام العائلة التقليدي.

ثانياً: كان ظهور فرويد في ذروة ردة فعل المجتمعات على الكنيسة بعد أن غالت كثيراً في تقييد الغرائز والانفعالات البشرية الطبيعية، ومن هنا كان الجو العام مهيئاً لانتشار نظريات وتحليلات فرويد انتشار النار في الهشيم. إذ كان هناك من ينادي بتحرير المرأة ومساواتها بالرجل، خالطين بين التحرر والإباحة الجنسية، أمثال سان سيمون وفورييه في فرنسة، فنادى السان سيمون " بإعادة الاعتبار

(١) مفهوم القمع عند فرويد وماركوز، محمد الجوه، ترجمة فتحي الرقيق ص ٧٦، نشر دار الفارابي - بيروت.
(٢) مفهوم القمع عند فرويد وماركوز، محمد الجوه، ترجمة فتحي الرقيق ص ٦٠، نشر دار الفارابي - بيروت.

للمتع الحسية انطلاقاً من فكرة أن ما خلقه الله لايمكن أن يكون رجساً، وأن الجسد شأن الروح من خلق الله"[١].

أما فورييه فرغم مطالبته بالمساواة بين الجنسين واعتقاده بقدرة النساء على القيام بجميع الأعمال شأنهن شأن الرجال إلا أنه هو الآخر خلط بين تحرر المرأة والإباحة الجنسية، وهو يظن أن هذا التحرر "مرهون بحرية العواطف والعلاقات الجنسية وحدها"[٢].

وكانت جماعة "المنعتقين" وهم جماعة من الهيجليين الشباب وبعض الإباحيين يدعون إلى حياة بوهيمية وإلى الإباحية ومشاعية النساء. إلا أن ماركس الذي انطلق من هيغل بدأ يبتعد عن هؤلاء ويدين أفكارهم وأخلاقهم المنحلة مؤكداً أن الزواج ليس مفهوماً من المفاهيم كما يزعم هيغل، بل هو واقعة اجتماعية، داحضاً فكرة مشاع النساء ومميزاً الغريزة الجنسية عن الحاجات الطبيعية الأخرى.

ولم يتلقَّ لينين نظريات فرويد بارتياح، إذ رفضها واعتبرها "نزوه من نزوات الموضة"[٣] فيقول في لقائه مع

(١) جان فريفل، الاشتراكية والمرأة ص ٢٣، منشورات دار الآداب.
(٢) جان فريفل، الاشتراكية والمرأة ص٢٥، منشورات دار الآداب.
(٣) المرأة والاشتراكية، ترجمة وتقديم جورج طرابيشي، ص١٠٠، دار الآداب.

كلارا زكتين ناقداً غلوها في مناقشة المسائل الجنسية مع النساء البروتياليات، "إنه ليخيل إليّ أن هذه الوفرة في النظريات الجنسية التي ليست في معظمها سوى فرضيات تعسفية تنبع من ضرورات شخصية تماماً، أي إن حاجة المرء إلى تبرير حياته الشاذة أو غرائزه الجنسية المشتطة في نظر الأخلاق البورجوازية و إلى استصدار قرار بالعفو عنها".

كذلك رفض نظرية "كأس الماء" التي نادى بها المنعتقون، والتي تقول: إن تلبية الغرائز الجنسية والحاجة إلى الحب لن تعدو في المجتمع الشيوعي أن تكون أكثر من اجتراع كأس الماء، فيقول لينين " يقيناً إن الظمأ لابد أن يشفى غليله. لكن هل ينبطح إنسان سوي في ظروف سوية أيضاً، على بطنه على أرض الشارع ليشرب من مستنقع ماء وسخ، أو حتى من كأس لوثت حوافها عشرات الشفاه الأخرى؟ والأهم من ذلك أيضاً الناحية الاجتماعية، بالفعل إن شرب الماء مسألة شخصية، لكن في الحب شخصان معنيّان، وهناك كائن جديد ثالث. وإنما هاهنا تكمن المصلحة الاجتماعية ويولد الواجب اتجاه المجتمع"(١)

(١) كلارا زتكين - لينين، والمسألة الجنسية ص٨٢، المرأة والاشتراكية، منشورات دار الآداب.

وكان الحل عند لينين هو في السباحة والرياضة والدراسات والتحاليل والأبحاث التي تجد فيها الشبيبة المتعة، وهو ضد الترهب وأيضاً ضد الدون جوانيه، و أن الشطط في الحياة الجنسية لابد أن يؤدي إلى الدمار، ويضرب لينين مثلاً في الشاب هيوز فرغم "أنه شاب كامل عظيم الموهبة، لكني أخشى ألا يخرج منه شيء جيد، فهو يتخبط ويتنقل من مغامرة غرامية إلى أخرى. إن هذا لايقدم شيئاً لا للنضال السياسي ولا للثورة"(١). ورغم وعي ماركس ولينين لخطورة الإباحة التي نادى بها الكثيرون من الشيوعيين في فساد الشباب وفساد المجتمع، وقتل الإبداع فيه، إلا أن "نظرية كأس الماء" هذه أصبحت حقيقة في المجتمعات الاشتراكية وحتى المجتمعات الغربية، إذ التقت كلا الحضارتين في محاربة التابوات ورفع القدسية عن الإنسان، وانتشرت نظريات فرويد بين الرأسماليين كما بين الاشتراكيين وجهد منظرو الاشتراكية في بناء جسور مابين الاشتراكية والفرويدية، رغم كون فرويد لم يكن اشتراكياً باعترافه، بل كان ينظر إلى الماركسيين بارتياب، فهم في رأيه جاهلون

(١) كلارا زتكين - لينين، والمسألة الجنسية ص٨٢، المرأة والاشتراكية، منشورات دار الآداب.

بعمق الطبيعة الإنسانية ومنقادون إلى الأوهام. ولا أدل على ذلك من الطرفة التي رواها جونز "التقى فرويد بشيوعي أراد أن يبين له أن إقامة البلشفية ستجلب بعض سنوات البؤس ثم تتبع بالسلام والسعادة. فكان رده: أؤمن بالنصف الأول من هذا البرنامج"(١). رغم ذلك ورغم موقف لينين وماركس وأستالين الذي حظر بحث نظريات فرويد في الجامعات السوفياتية وأيضاً في الأدب الماركسي، إلا أن الفرويدية وجدت من يحاول إيجاد أسس مشتركة بينها وبين الماركسية، ففي مقال لميشيل بابلو يقول: "الواقع أن علينا أن نبحث في منهج فرويد بالذات وفي تطوراته وأفكاره وتأملاته وفرضياته عن الماهية المادية، والديالكتيكية في غالب الأحيان، لفكره، وعن روحه الثورية وأواصر قرباه الممكنة مع الماركسية. ومؤكد أنه لو كان فرويد يملك ثقافة ماركسية في موضوع الفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع، لاستفاد عمله من ذلك كبير الفائدة"(٢). ومن المتحمسين لنظريات فرويد ولهلم رايش الذي يقول في أحد مقالاته: "إن الطاقة الجنسية هي

---

(١) مفهوم القمع عند فرويد وماركوز، محمد الجوه، ترجمة فتحي الرقيق ص ١١٥، دار الفارابي - بيروت.

(٢) ميشيل بابلو، الفرويدية والماركسية ص١٨١، المرأة والاشتراكية، منشورات دار الآداب.

الطاقة البناءة للجهاز النفسي، وهي التي تشكل بنية البشر العاطفية والفكرية. والجنس (وبتعبير فيزيولوجي الوظيفة الجنسية) هو الطاقة الحيوية المنتجة بالذات. وقمعها لا يؤدي إلى الاختلال على الصعيد الطبي فحسب، بل أيضاً، وبصورة أعم، إلى اختلال الوظائف الحيوية الأساسية."(١)

وهاهي نظرية (كأس الماء) تصبح واقعاً في نموذج "العاشقين" كيو وماي "اللذين كانا يمزجان تفاهمهما الأيديولوجي بحرية فريدة من نوعها في الحب. فعندما كانت ماي تعود مساء، كانت تقول لكيو: "أتعرف، لقد نمت مع فلان من الناس"(٢).

لقد بالغ فرويد وأنصاره كثيراً في دعوتهم لإشباع الرغبات الجنسية، وتجاهلوا الواقع الذي يقول: إن الإفراط في هذا الاتجاه لابد أن يؤدي إلى عواقب وخيمة.

---

(١) مقتطفات من ولهلم رايش، ص١٦٩، المرأة والاشتراكية، منشورات دار الآداب، ترجمة وتقديم جورج طرابيشي.

(٢) فرانسواز دوبون، حدود التصور الماركسي عن مشكلة المرأة ص ١١٤، المرأة والاشتراكية، منشورات دار الآداب، ترجمة جورج طرابيشي.



موقف المرأة من الظلم الواقع عليها

استمر الظلم مخيماً على حياة المرأة قروناً وعصوراً طويلة، فهل كان ذلك دون مقاومة منها؟.. هل حقيقة ما يشاع عن ضعف المرأة، وعدم صلاحيتها لمكانة أرفع؟...

تخبرنا أسطورة النساء الأمازونيات، أن المرأة منذ البداية لم تستسلم لهزيمتها، بل قاومت غطرسة الرجل وظلمه، وتثبت لنا أيضاً أن ردة فعلها كانت عنيفه[1]، ورغم

---

(١) تروي أن الأمازونيات "كن قبيلة من النساء المحاربات، أتين من شواطئ البحر الأسود، وسكن عند تخوم بلاد الإغريق، فأسسن عدداً من المدن تحكمها ملكة، وتتعبد للآلهة "أرتميس". وبسبب عداوتهن للرجال كان مجتمع الأمازونيات وقفاً على النساء وحدهن، اللواتي إذا أردن الإنجاب أتين بلاداً مجاورة فضاجعن رجالها وعدن من حيث أتين. حتى إذا وضعن مواليدهن قتلن =

أن التاريخ لم ينقل لنا، ثورات قامت بها النساء أو منظمات نسائية للمطالبة بحقوق المرأة إلا حديثاً، إلا أن المرأة بطبيعتها ترفض الظلم والخنوع تماماً كالرجل، وهناك قصة لعلها تظهر لنا موقف المرأة من الظلم الواقع عليها: "ففي عام ٣٣١ق. م، انتشر في رومة مرض غريب لم يسمع عنه أحد من قبل، وقد هاجم هذا المرض مجموعة كبيرة من المواطنين - من بينهم عدد كبير من النبلاء والأشراف الرومان وكانت أعراض المرض المجهول واحدة عند الجميع تقريباً، كما كانت النتيجة واحدة أيضاً: الموت ومن ثم هلاك الجميع..! وأحاط الغموض بهذه القضية التي تحدثت عنها رومة كلها، وظل فترة طويلة سراً مجهولاً لا يعرفه أحد، إلى أن ذهبت خادمة إلى الشرطة الرومانية ذات صباح، وقالت: إنها تستطيع أن تفسر أصل هذا المرض المنتشر، فهي تعرف أسبابه، لكنها لن تفعل ذلك مالم يضمن لها أولو الأمر الحماية الضرورية، ويضمنوا أنها لن تعاني

= الذكور في المهد وأبقين على الإناث، اللواتي تتم تربيتهن منذ الصغر على فنون الحرب وكره الرجال. ويقال: إنهن كن يقطعن النهد الأيمن في صدرهن ليستطعن استعمال القوس بسهولة. وتنسب الأساطير إلى هؤلاء بناء عدد من المدن بعيداً عن موطنهن الأصلي..".

ألماً أو تعذيباً نتيجة إفشاء السر. ولما عُرض الأمر على القنصل، ومستشار مجلس الشيوخ، أصدر المجلس قراراً بحماية الخادمة، عندئذ كشفت الخادمة عن سر هذا الوباء الذي اجتاح رومة وهو: أن الزوجات في لحظة تمرد ضد أزواجهن مزجن الخمر بنوع معين من أنواع السموم، وهذا هو السبب في هذه النسبة العالية من الوفيات: إنها نتيجة التسمم. واستطاعت الخادمة أن تصحب معها بعض المسؤولين ليذهبوا خلسة لرؤية إحدى ربات البيوت وهي تقوم بعملية مزج الخمر بالسموم. واستطاعت هذه اللجنة أن تكشف أمر أكثر من عشرين سيدة من ربات البيوت تقوم بتحضير هذا السائل الغريب، ومن الطريف أن الزوجات بعد أن افتضح أمرهن، تداولن الأمر فيما بينهن، وتقدمن في جرأة وثبات وتجرعن كميات كبيرة من هذا السم أودت بحياتهن في الحال.![1]. وعدد النساء اللاتي شاركن بهذا التمرد العنيف بلغ ١٧٠ سيدة. أي عدد لايستهان به. وربما يكون ما حدث للفرنسية أوليمب دي غوج Olympe de Gouge، التي أعدمت بالمقصلة بعد مشاركتها مع الكثيرات في الثورة الفرنسية، وبعد أن تجرّأت وانتقدت الثورة لعدم

---

(١) د. إمام عبد الفتاح إمام، الفيلسوف المسيحي والمرأة ص ٢٤.

الالتفات للمرأة بعد الدور الهام الذي قامت به، هوأيضاً دليل على مقاومة المرأة للظلم الواقع عليها، ربما لم ينقل لنا التاريخ ثورات قامت بها المرأة لتدافع عن مكانتها، كما أغفل أخبار الكثيرات ممن كان لهن دور في الثقافة أو العلم، بل إن هناك فيلسوفات تناساهن المؤرخون، كما أن العلاقة المعقدة بين الرجل والمرأة، بالإضافة إلى طبيعة المرأة العاطفية، يجعلها تتغاضى أحياناً، وترضخ أحياناً أخرى من أجل من تحب، وهذا ما كان يشجع الرجل على التمادي، إلى أن حرمها حقوقها، وقزم دورها في الحياة، واستبعدت عن الحياة العامة، وجهلت، وكان الجهل بحد ذاته هو البيئة الصالحة لفرض السيطرة والاستعباد، بل إن الجهل جعل المرأة بشكل عام تتجاهل قدراتها، وتركن إلى ما يشاع عنها وما تتناقله الأجيال من أنها أدنى مرتبه من الرجل، وأنها ما خلقت إلا لخدمته.

- **الاشتراكية والمرأة**

قبل الثورة الصناعية، وقبل تطور الآلات، كان كثير من الأسر في الدول الصناعية كإنجلترة، تعمل على تحويل المواد الأولية إلى غزل، ومن ثم إلى نسيج، فتقوم الزوجة والأبناء بغزل الخيوط، ويقوم رب الأسرة بتحويلها إلى

نسيج، ومن ثم بيعها، أو أنها تباع خيوطاً دون نسج، وكانت الأسواق المحلية آن ذاك تفي بالغرض، ومن ثمَّ تعيش هذه الأسر حياة غير سيئة. وبعد تطوير الآلات وإدخال الكثير من التحسينات عليها، انتقل عبء العمل الحقيقي إلى الإله، وتحول عمل الرجل من الجهد العضلي إلى المراقبة، التي يمكن أن تقوم بها المرأة أو يقوم بها الطفل، وهؤلاء يتقاضون أجراً أقل من أجر الرجال بمرتين أو ثلاث مرات، ورغبة في المزيد من الكسب فضل أصحاب المصانع استخدام الأطفال والنساء على استخدام الرجال، ومن ثم امتلأت المصانع بالنساء والأطفال، ففي بريطانية العظمى، في العام ١٨٤٤، بلغت نسبة النساء في مصانع القطن ٥٦،٢٥٪، وفي مصانع المنسوجات الصوفية ٦٩،٥٪، وفي مصانع الحرير ٧٠،٥٪، وفي مصانع غزل الكتان ٧٠،٥٪، ومع طول ساعات العمل التي لا تقل عن اثنتي عشرة ساعة يومياً. فلنا أن نتخيل وضع الأسرة والأبناء عندما تغيب الأم عن المنزل كل تلك المده[١]، ومن ثم تأتي منهكة لاتقوى على أي عمل من أجل أطفالها، أما إن كانت المرأة حاملاً، فلا يكترث صاحب المصنع لصحتها أو صحة جنينها، وليس

---

(١) قضية المرأة، ماركس إنجلز - لينين، ص ٢٢.

هناك قانون يلزمه بذلك، وعندما تضع مولودها، فإن عليها أن تعود للعمل بساعاته الطويلة بعد ثلاثة أو أربعة أيام من الوضع، متغاضية عن تعبها، تاركة خلفها طفلها الرضيع، تحت رعاية أخيه الأكبر، إن كان الزوج يعمل. وهناك الكثير من الرجال الذين لايجدون عملاً، ويتبادلون الأدوار مع زوجاتهم، قالبين الأوضاع رأساً على عقب، إذ يبقى الزوج في المنزل يعتني بالأطفال، ويقوم بالأعباء المنزلية، بينما تعمل زوجته في المصنع جل اليوم بساعاته الطويلة المضنية، وليس أبلغ من تلك الرسالة التي تروي قصة أحد العمال الذي وصل إلى سانت - هيلينز في لانكشاير باحثاً عن عمل، وهناك راح يفتش عن صديق قديم له، وعندما عثر عليه، وجده يسكن في غرفه في قبو رطب، أبعد ماتكون عما يمكن أن يسمى بسكن للبشر، خالية تقريباً من الأثاث، وكان يرفو جوارب زوجته التي تعمل في المصنع ولا تعود إلا منهكة محطمة بعد أربع عشرة ساعة من العمل المضني، بينما هو غير قادر على إيجاد عمل يتكسب منه، ويأخذ مكانه الطبيعي في الحياة[1]: هذا الاستغلال الفاحش من قبل

---

(١) "وها هو ياسيدي، يجده عندما اقترب من حجرة من حجره، ماذا تظن ياسيدي، ماذا رأى؟ قبو واطئ رطب، أما فرشه فهو التالي: كرسيان قديمان، طاولة مستديرة على ثلاث قوائم، صندوق، =

أصحاب المصانع للطبقة الفقيرة في المجتمع، لم يقف عند

= لا وجود لأي سرير، هناك في الزاوية كومة من القش العتيق فقط، مغطاة بشرشفين قديمين متسخين، وقطعتا حطب قرب الموقد. عندما دخل صديقي المسكين إلى هناك، كان جاك المسكين جالساً على قطعة خشب قرب الموقد، وماذا تظن ياسيدي، أنه كان يفعل؟ كان يرفو جوارب زوجته بإبرة ملاحف، وعندما رأى صديقه عند العتبة أراد أن يفي عمله، ولكن جو - هذا هو اسم صديقي - رأى كل شيء وقال: " ياللشيطان، يا جاك، ماذا تفعل؟ أين زوجتك؟ ما هذا العمل الذي تقوم به؟ خجل جاك المسكين وقال: "أنا أعرف أن هذا العمل ليس عملي، ولكن زوجتي المسكينة في مصنع الفبركة ؛ إنها تذهب إلى هناك في الصباح، في الخامسة والنصف، حيث تعمل حتى الثامنة مساءً. وتتعب كثيراً، حتى إنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً بعد عودتها. أنا بلاعمل منذ أكثر من ثلاث سنوات، ولن أجد عملاً طوال حياتي" هنا بكى بكاءً مراً وقال: "نعم، يا جو اللطيف، هناك عمل كاف للنساء والأطفال في هذه المنطقة، ولكن ليس هناك عمل للرجال. أهون عليك أن تجد مئة جنيه أسترليني في الطريق من أن تجد عملاً. ولكنني لم أعتقد أبداً أنك سترى أنت أو أي شخص آخر كيف أرفو جوارب زوجتي، لأن هذا عمل رديء. ولكن زوجتي تكاد لا تستطيع الوقوف على قدميها عند عودتها، وأنا أخاف أن تمرض، عندئذ لا أعرف ماذا سيحل بنا، لأنها قد أصبحت منذ زمن بعيد رجل البيت، أما أنا فانقلبت إلى امرأة. هذا عمل رديء يا جو. لم تكن الأمور كذلك دائماً"، واستمر يبكي بمرارة». المرجع السابق ص٢٦.

هذا الحد، بل إن النتائج الأخلاقية لعمل المرأة في المصانع أسوأ من ذلك بكثير، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لأناس من الجنسين ومن مختلف الأعمار يعملون في ورشة واحدة لمدة طويلة، ولايملكون أية تربية فكرية أو أخلاقية، كل ذلك لابد وأن يأتي بنتائج سيئة، كما أن استغلال أصحاب المصانع لم يتوقف على جهد النساء والأطفال، ولكن تعداه إلى جسد العاملات ومفاتنهن، والتهديد بالتسريح كاف في تسع حالات من عشر، لقهر أية مقاومة تبديها الفتاة[١]. كل ذلك عمل على تفكيك الأسرة، وباعد بين الأم وأبنائها وبين الأب وأبنائه، فالأم التي لا تكاد ترى طفلها، ولا تشعر بأولى خطواته في هذه الحياة، لابد أن تكون الغربة هي التي تحكم تلك العلاقة، والوالد الذي لايستطيع إيجاد فرصة عمل، ويضطر للاعتماد على أطفاله لإعالته وإعالة الأسرة، لايستطيع القيام بدوره كأب، وتهذيب أبنائه، ولا بد أن يترافق كل ذلك مع انهيار أخلاقي. ونحن نرى أن الظلم الذي وقع على طبقة من المجتمع تضاعف وقعه على المرأة، لقد أجبرت على التخلي عن أنوثتها حتى لاتموت جوعاً، أو كي تنقذ أسرتها من المجاعة، غير أن السل كان بالمرصاد للكثيرات بسبب ظروف العمل السيئة.

---

(١) قضية المرأة، ماركس، إنجلز - لينين، ص ٣٣، دار الجماهير.

إن اتساع الهوة بين طبقات المجتمع، واستغلال إحداهما للأخرى بهذا الشكل الفاحش، هيّأ لظهور الاشتراكية، التي ناضلت من أجل رفع المعاناة عن طبقة الكادحين، وأولت اهتماماً كبيراً لوضع المرأة، فطالبت بمساواتها بالرجل اجتماعياً وقانونياً.

يقول إنجلز الذي واكب معاناة الطبقة الكادحة في إنجلترة، ورأى بؤسها وفقرها وكذلك فسادها من خلال الإدمان على الكحول والفسق والفجور، والانحلال الأسري، والانحطاط الجسماني والمعنوي، يقول في كتابه (أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة)، أمام من يلوم تلك الطبقة: "عندما يوضع الناس في موقف لا يصلح إلا للحيوان، لا يبقى أمامهم إلا أن يتمردوا أو يسقطوا في الحيوانية... والبورجوازية هي أقل الناس حقاً في لوم الطبقة العاملة على فظاظتها الجنسية"[1].

ربط مؤسسا الاشتراكية العلمية، ماركس وأنجلز بين التمييز المضروب على المرأة وبين الملكية الخاصة وظهور المجتمع الطبقي وأخيراً ظهور الدولة بوصفها منظماً للمجتمع الطبقي. ومن ثمَّ فإن الجهود المبذولة في سبيل تحرر المرأة هي جزء لا

---

(١) المرأة والاشتراكية، ص ٢٨، دار الآداب.

يتجزأ من النضال في سبيل الاشتراكية، وفي سبيل مجتمع بلا طبقات. وقد طالب فوريبه بانعتاق المرأة وبالمساواة الحقوقية بين الجنسين وبحرية العواطف. "إن التقدم الاجتماعي والتغييرات المرحلية تتم حسب تقدم النساء نحو الحرية، وانحطاط النظام الاجتماعي تابع لنقصان حرية النساء... إن توسيع امتيازات النساء هو المبدأ العام لكل تقدم اجتماعي"(١).

بانتصار ثورة تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٧م في روسية، بدأ تطبيق الاشتراكية على أرض الواقع، وبدأت المساواة الحقيقية بين الجنسين، وبدأت مشاركة المرأة في جميع مناحي الحياة، بما في ذلك الاعتراف بحقوقها السياسية، هذا وقد شجعت الثورة عمل المرأة، وطالبت باستقلالها الاقتصادي، ولكن ضمن شروط معينة تمنع استغلالها:

١٤ - مجانية وإجبارية التعليم العام والمهني لغاية السادسة عشرة من العمر ولجميع الأبناء من الجنسين، وتأمين الطعام واللباس والكتب على نفقة الدولة للأبناء الفقراء.

وإن الحزب في سبيل حماية الطبقة العاملة من الانهيار الجسدي والأخلاقي، وأيضاً في سبيل تطوير طاقتها على النضال التحرري إنما يطالب بما يلي:

---

(١) المرأة والاشتراكية، ص٢٤، دار الآداب.

١- تحديد يوم العمل بثماني ساعات لكل المأجورين، ويتضمن هذا الزمن، فيما إذا كان العمل يجري دون انقطاع، فترة راحة للغذاء تحدد بساعة واحدة على الأقل، وفي الصناعات الخطرة أو المضرة بالصحة يجب تخفيف يوم العمل إلى أربع ساعات أو ست ساعات.

٢- ألا تقل الراحة الأسبوعية عن ٤٢ ساعة متواصلة للعمال المأجورين من الجنسين في جميع فروع الاقتصاد الوطني.

٣- المنع المطلق لساعات العمل الإضافية.

٤- تحريم العمل الليلي (من التاسعة مساء حتى السادسة صباحاً) في جميع فروع الاقتصاد الوطني باستثناء الصناعات التي يكون العمل فيها ضرورة قصوى لأسباب فنية توافق عليها المنظمات العمالية.

٦- منع تشغيل النساء في المصانع التي يتصف فيها العمل بطابع الإضرار بالتكوين النسائي، ومنع عمل النساء الليلي، ومنحهن إجازة مدفوعة الأجر مدتها ثمانية أسابيع قبل الولادة و ثمانية أسابيع بعدها، مع مجانية العناية الطبية والعلاج.

٧- إنشاء دور حضانة للأطفال الرضع والأطفال الصغار في كافة المصانع والمعامل وبقية المشاريع التي تستخدم عمل النساء، ويجب إعطاء كل عاملة مرضعة نصف ساعة على الأقل تخصص لإرضاع طفلها كل ثلاث ساعات.

٨- تخصيص معاش تقاعدي بسبب الشيخوخة، ومعاش في حالة العجز الكامل أو الجزئي عن العمل، وتؤمن الدولة هذه المعاشات من صناديق خاصة تغذيها بضريبة على الرأسماليين.

١٠- منع أرباب العمل من إجراء أي حسم نقدي من الأجور مهما كانت الذريعة ومهما كان السبب.

عملت الثورة على زوال الأسر الرعوية، ومن ثَمَّ اختفاء الأسرة بوصفها وحدة إنتاج، ومن ثم إحلال أسر تقوم على المساواة المطلقة بين الزوجين، وذلك من خلال الاستقلال الاقتصادي للمرأة، كما ساوت في الأجر بين المرأة والرجل. ولقد ذللت الثورة العقبات التي كانت تقيد المرأة، كأعباء العمل المنزلي والأمومة، فأنشأت حضانات ألحقت بأماكن العمل، تستطيع الأم المرضعة الاطمئنان على طفلها وإرضاعه بأوقات محددة، وبذلك يتم التوفيق بين الأمومة والعمل، وتستمر بعملها دون أن تتخلى عن أمومتها.

لكن تبقى أعباء الأعمال المنزلية، الذي تستهلك الكثير من الوقت والجهد، والذي مازال ملقى على عاتق المرأة. وهذه أيضاً كان لها الحل لدى لينين الذي صرح بوضوح: "إن المرأة تظل مستعبدة البيت... لأن حقارة العمل المنزلي تسحقها وتخنقها وتبلدها وتحطها وتقيدها بالمطبخ وغرفة الأطفال وتبدد تعبها وكدها في عمل غير منتج إلى حد البربرية، حقير، مثير للأعصاب، مبلد ومحبط. إن التحرر الحقيقي للمرأة الشيوعية الحقيقية يبدآن فقط يوم يبدأ النضال الجماعي... ضد حقارة العمل المنزلي، وبعبارة أدق، يوم يعاد تنظيم هذا العمل على أساس جماعي، على أساس تنظيم اشتراكي"(١). والحل يأتي عن طريق توسيع شبكة الروضات والمطاعم والمغاسل العامة. وقيام تلك الخدمات العامة يحتاج إلى تمويل كبير، تكفلت فيه الدولة رغم ضعف إمكاناتها في البداية، وذلك من خلال رصد ميزانية مقتطعة من الصناديق المركزية.

ومقارنةً بالمرأة العاملة في المجتمعات الرأسمالية، فإن المرأة في المجتمعات الرأسمالية مازالت تعاني إلى يومنا هذا من مشكلة الأمومة، إذ تعتبر مشكلة خاصة لاتعني صاحب

---

(١) المرأة والاشتراكية، ص ٢٣٤، دار الآداب.

العمل، وليس هناك قانونٌ يجبره على إلحاق حضانات بمصنعه أو شركته، كما أن اليد العاملة النسائية ليست يداً ثابتة بالنسبة إليه، فهي خاضعة بسبب الأمومة والأعباء المنزلية إلى قلة العطاء والانقطاع، وهي من ثم لا تدر ربحاً كما الرجل المتفرغ للعمل. ومن أجل ذلك تأخرت الدول الرأسمالية كثيراً في إصدار قوانين تساوي بالأجر بين الذكور والإناث.

نستطيع القول: إن المرأة لم تحصل على المساواة الحقيقية، إلا في المجتمع الاشتراكي، وعهد لينين بالتحديد، لقد كان عصراً ذهبياً، نالت فيه المرأة حقوقها غير منقوصة، وساوت الرجل مساواة كاملة، ومن ثمَّ استطاعت تطوير قدراتها من خلال العلم والثقافة، وأصبحت مؤهلة لولوج كافة المجالات التي كانت حكراً على الرجل فقط.

فهل كان هذا نهاية نضال المرأة في سبيل الحصول على حقوقها؟ وهل كان وضع المرأة الاشتراكية هو ما تصبو إليه كل امرأة؟...

يقول غورباتشوف في كتابه البروسترايكا: " ولكن في غمرة مشكلاتنا اليومية الصعبة كدنا ننسى حقوق المرأة

ومتطلباتها المميزة المتعلقة بدورها، أماً وربة أسرة كما كدنا ننسى وظيفتها التي لابديل عنها مربية للأطفال "[١].

وهو يرى أن الكثير من السلوك السيّئ للفتيان والشباب، والمشاكل الخلقية والتربوية والاجتماعية وحتى الإنتاجية، يعود إلى ضعف الروابط الأسرية والتهاون بالواجبات العائلية.

ويضيف غورباتشوف: "المشكلة الأخرى التي لدينا هي ممارسة المرأة للأعمال المجهدة التي تنعكس سلباً على حالتها الجسدية"[٢].

إن غورباتشوف لا ينادي على حد قوله بعودة المرأة إلى المنزل كما يتبادر للذهن، بل ينادي "بتصحيح الخلل الذي طرأ على المساواة بين المرأة والرجل، هذه المساواة التي باتت متممة لفضائل مجتمعنا"[٣].

---

(١) غورباشوف، ميخائيل - البروسترايكا، إعادة البناء والفكر الاشتراكي إلى أين!؟ ص ١٣٤، ترجمة: الدكتور عباس خلف، شركة المعرفة.
(٢) غورباشوف، ميخائيل - البروسترايكا، إعادة البناء والفكر الاشتراكي إلى أين!؟ ص ١٣٥، ترجمة: الدكتور عباس خلف، شركة المعرفة.
(٣) المصدر السابق.

لقد كان هناك خلل بالفعل، ليس بالنسبة إلى قضية المرأة فقط، ولكن على كافة المستويات، وهذا لايعني خللاً في الثورة منذ البداية، فالظروف السائدة آن ذاك كانت تحتم قيام ثورة لإنقاذ المجتمع برفع الظلم عن الطبقات الكادحة، أما تطبيق التجربة على أرض الواقع، فهذا ما كان يحتمل أموراً كثيرة، وكان لابد من وجود تقويم دائم للتجربة، وإيجاد مساحة للتغيير والتطوير والإصلاح. بيد أن ستالين خليفة لينين كان دكتاتوراً، حرص على الجمود في منجزات الثورة، وبعد وفاته لم يأتِ من يصلح، فتفاقمت الأمور وعادت الشعوب الاشتراكية تعاني من جديد، مما أدى في نهاية المطاف إلى انهيار المعسكر الاشتراكي بأسرع مما كنا نتصور. وكانت المفاجأة التي أظهرتها وسائل الإعلام، في الصور - رغم سطحيتها - التي تظهر تطلعات تلك الشعوب إلى الحياة الغربية، وخاصة الأمريكية منها من خلال التهالك على لباس الجينز، وعلى الهمبرغور والكوكا كولا، فهل كان الترحيب والفرح في محله؟.

الواقع أن ما حدث كان كارثة، ولا أقول ذلك تعاطفاً مع الاشتراكية ورفضاً للانفتاح، لكن الذي حدث انهيار مفاجئ ترك البلاد نهباً لفوضى عارمة، يصعب لملمتها،

انعكست على الشعب سلباً، وأصبح من كان يتطلع لرفاهية الغرب يستجدي قوت يومه. لكن ما تأثيرها على المرأة؟..

بعد تسعة أعوام من استقلالها عن روسية يقول محمد نور الدين واصفاً رحلته إلى قازقستان: ".. تكشف لنا بوضوح نسوية المجتمع القازاقي والروسي. معظم الباعة، في الأكشاك، والمطاعم والبسطات من النساء وغالبيتهن من الشابات. حتى نسبة اللواتي يرحن في الشارع ويجئن تطغى بوضوح على نسبة الرجال، وتتساءل: أين هم الرجال، والشبان إذن؟[(١)]

ويأتي الجواب، " إنه نبات ال"الناصباي" الذي يوضع بعض منه في الفم بين الأسنان السفلى الأمامية وبين الشفة السفلى ويمضغ ببطء إلى أن تسري قشعريرة تخدير ناعمة قد تطيح بوعيك إن أكثرت من تناول الكمية الممضوغة. وتعرف من البائعة أن هذا "طعام" مفضل عند الرجال يبقيهم غائبين عن الوعي فترات طويلة. وإذا ما صحوا أكملوا "مهنتهم" بتناول مشروبات كحولية يستدينون لشرائها. المرأة هنا العاملة والكادحة، فيما الرجل لاهٍ لا مبالٍ ومهمل. "[(٢)]

---

(١) محمد نور الدين، حجاب وحراب ص ٤٠٤، رياض الريس للكتاب والنشر.

(٢) المرجع السابق ص ٤٠٩.

أجل هذا هو وضع المرأة بعد انهيار الشيوعية، تكد وتكدح وحيدة من أجل كسب قوت يومها، رغم كل الظروف، أما الرجل فلا يشعر بعد أن جردته الاشتراكية من مسؤولياته اتجاه زوجته، وأصبح شريكاً مساوياً لزوجته في المتطلبات العائلية والأبناء، لذلك لم يكن أمامه إلا الهروب من واقعه عن طريق الإدمان على الكحول والمخدرات، وهو لايجد غضاضة في أن تحمل الزوجة مسؤولية الأبناء، بينما يستجدي هو ثمن كحوله أو مخدراته.

وإلى أين وصل بها المطاف بحثاً عن كسب قوتها وكسب قوت عائلتها؟.. لقد كانت نهاية المطاف محزنة، كانت صيداً سهلاً لشبكات الرقيق الأبيض العالمية، لم يكن سوى إعلان في الصحافة عن حاجة بعض الدول لموظفات بخبرات معينة، وهذه الدول ربما تكون أوروبية أو سواها، والراتب لا بد أن يكون مغرياً بالنسبة إلى من لا تجد عملاً حتى أدنى من خبراتها، وتنتقل إلى بلد آخر لا تعلم عنه شيئاً، تنتقل وهي تحلم بأحلام وردية تنتشلها من بؤسها، لكن الطامة تحدث، وتجد نفسها بين براثن عصابه لا ترحم، في سجن وجلادين، ودون جواز سفر أو أي أوراق ثبوتية. وهكذا ينتهي الحلم نهاية مأساوية، وقضية إجرام مهمش لايجد من يحاربه، رغم تعارضه مع كل ماهو إنساني، بل

نجد من يتبنى قضية حماية الحيوان أو النبات، ولا نجد من يفتح ملف تلك العصابات العالمية.

أين الخلل، من جديد؟...

بلا شك أن المرأة نالت الكثير من حقوقها، واستعادت مكانتها الطبيعية، لكن يجب إعادة النظر في قضية الاستقلال الاقتصادي الذي تطالب فيه معظم حركات التحرر النسائية في العالم، إن استقلال المرأة اقتصادياً يعفي الرجل من مسؤولياته اتجاه المرأة واتجاه أسرته، وهذا يجبر المرأة على العمل تحت وطأة أي ظرف كان، ويعرضها للكثير من التنازلات والإهانات، التي هي في غنى عنها في حال تحمل الرجل مسؤولياته تجاه أسرته، ولا يعني ذلك أن تتخلى المرأة عن العمل خارج المنزل والمشاركة في بناء المجتمع، لكن من مصلحة المرأة أن تملك مساحة من الحرية، تستخدمها حين تستشعر الخطر، أو حين تمس كرامتها.

بنت الاشتراكية نظرياتها على العنصر الاقتصادي، وأعادت بناء مجتمعاتها على هذا الأساس، ومن ثم أعادت ترتيب أولويات دور المرأة بالمجتمع، فتراجع دورها زوجاً وأمّاً على حساب دورها في بناء اقتصاد مجتمعها، ومع تغاضي بعض النظريات الاشتراكية عن حرية العلاقات

الجنسية ومناداة البعض بالإباحة، عمت الفوضى الجنسية، وتحرر الرجل من مسؤولياته أباً في مقابل حصول المرأة على استقلالها الاقتصادي.

وفي المجتمعات الغربية التي اتهمت الاشتراكية والشيوعية بمشاعية النساء ظهرت الكثير من الفلسفات التي نادت بالحرية للمرأة، وخلطت بين الحرية والإباحة الجنسية، وكان لعلم النفس التحليلي الذي ابتدعه فرويد الدور الأكبر في انتشار الإباحة الجنسية، ساعد على ذلك النظام الرأسمالي الذي أعطى الأولوية لنمو رأس المال على حساب القيم الأخلاقية، وعندما حازت المرأة استقلالها الاقتصادي، تحرر الرجل الغربي من الكثير من المسؤوليات، وأصبح يعيش لنفسه، بينما تعيش هي لأبنائها متحملة المسؤولية كاملة.

المرأة في عصرنا الراهن

نجد أن النتيجة واحدة في المجتمعات الغربية والشرقية، واستعراضاً للنتائج على أرض الواقع نجد أن هذه الأنظمة أفرزت عدة أصناف من النساء:

- **المرأة الدمية**

أتت هوليوود بامرأة تائهة، ثم أعادت تصنيعها من جديد، أعطت لشعرها اللون الأشقر، ورسمت معالم وجهها بالألوان والمساحيق، وجيء بملابس تبرز مفاتنها، ولم ينسَ المخرج توجيهها بحيث يبقى طابع البلاهة غالباً على محيَّاها، فظهرت كدمية حقيقية. ثم جاء دور وسائل الإعلام بمختلف أنواعها لتروج لهذه الدمية، وتجعل منها تمثالاً ورمزاً، يصفق له الرجال في كل مكان. إنها بغي مسلوبة

الإرادة يحركها الرجل كيف يشاء، فيجني من وراء ذلك المتعة والمال. إنها مارلين مونرو إحدى رموز الحضارة الأمريكية، التي جعلت منها وسائل الإعلام أسطورة وقدوة، رغم نهايتها المأساوية، وهي في الواقع نهاية متوقعة لمثل نموذج كهذا، ولم يجرؤ أحد على المخالفة وقول الحقيقة، بل استمر تمجيدها بوصفها أسطورة.

وتتكرر التجربة.. وتتضافر الجهود.. سينما... تلفاز.. إعلانات تجارية.. دور أزياء، وتصبح المرأة تحت ستار الحرية سلعة، ويصبح جسدها تجارة رائجة، ووسيلة لترويج منتجات المصانع من سيارات إلى المواد الغذائية إلى علبة الكبريت، وتعدى ذلك إلى المطبوعات ومنها الثقافية، فلن تنجح مجلة في الانتشار إلا إذا اعتنت باختيار فتاة غلاف مغرية وفاتنة. ونتحلق أمام جهاز التلفاز لعلنا نشاهد شيئاً من الطرب يغذي أرواحنا بصوت وكلمات ولحن، فلا نرى سوى استعراض لأجساد عارية مثيرة للاشمئزاز، تخفي التواءاتها معالم الصوت، وتفقد كلماتها أي معنى، وهكذا تصبح مقومات الفن والطرب لا تمر إلا عبر الأجساد الفاتنة، ويصبح العري هو جواز المرور للشهرة والنجاح، أما الصوت فهو من المقومات الثانوية. وأضحت الفتاة منذ نعومة أظافرها تتوحّد بتلك النماذج البراقة، وتحلم بأن تصبح يوماً

ما واحدة من أولئك المثيرات اللاتي يملأن وسائل الإعلام وأغلفة المجلات.

يأتي دَوْر دُوْرِ الأزياء ومؤسسات اختيار ملكات الجمال، ليعرض لنا نساء طفلات في مشيتهن، تبدو السذاجة على محيَّاهن، مصابات بسوء تغذيه حاد. يحدد الرجال كيفية لباسهن وكيف يتحركن، ويصبحن نموذجاً يقتدى.

أما مهرجانات اختيار ملكات الجمال فلا تختلف المقاييس كثيراً عن مقاييس عارضات الأزياء، حيث تجرد المرأة من كل شيء عدا الجمال كصورة، فهل المرأة لاتملك من الجمال غير جمال الوجه والجسد؟!.. فأين جمال الروح؟.. وأين جمال العقل؟..

تبدو العملية وكأنها مؤامرة تحاك ضد المرأة من قبل الرجل، فمقاييس الجمال التي تتطلب من المرأة التحول المبالغ به يضعف عقلها، ويجعله يتوقف عن التفكير، والترويج للجمال والشكل الخارجي بحيث يصبح هم المرأة الأوحد اتباع صرعات الموضة، والاقتداء بعارضات الأزياء وفتيات الإعلان، "ويصبح هدف المرأة الأول قبل أي هدف آخر هو فقدان من ١٠ إلى ١٥ باونداً"[١].

(١) Naomi Wolf - The Beauty Myth - p.10 - Perennial.

إذن، وقعت المرأة بالفخ، وبعد أن كانت حبيسة البيت مهمشة، محرومة من حقوقها، مهمتها خدمة زوجها وتلبية رغباته، أصبحت ملك جميع الرجال، تتحرك حسب رغباتهم، وفي سبيل إمتاعهم، لقد ارتضت هذا وبحماس، في مقابل كلمة إطراء عابرة أو نظرة مليئة بالشهوة الحيوانية. عادت أسوأ ما كانت، عادت أَمَة يحركها مصمم الأزياء، أو صانع الفنانات الرخيصات. تستسلم لمبضع الجراح ليغير من شكلها، وتصبح أكثر لفتاً لنظر الرجال، وليس مهماً أن يتسلل إليها مرض السرطان ويسلب حياتها.

والمشكلة تكمن في جموع الفتيات المنقادات لا شعورياً خلف تلك النماذج البراقة التي لا تحمل إلا الدمار للمرأة.

- **المرأة المسترجلة**

وهناك نموذج آخر للمرأة، المرأة المتمردة، التي تشعر بدونيتها، وتسْعى إلى الكمال، وترى الكمال في دخول عالم الرجال ومنافستهم بأعمالهم الشاقة منها، فنجدها تعمل سائقة شاحنة، أو عاملة نظافة، أو نجدها تطارد اللصوص وعتاة المجرمين، هذه المرأة تكون قد تخلت عن أنوثتها

معلنة رفضها لها مؤكدة بغضها لجنس الأنثى، لكنها لا تصبح أبداً إلا رجلاً شائهاً، حاكمة على حياتها بالدمار.

- **المرأة المتزنة**

ويبقى بأعداد أقل نساء لم ينخدعن، حافظن على ملامح شخصيتهن الأنثوية، وعملن على أن ينجحن بمقاييسهن الأنثوية، لم ينصبن العداء للرجل، ولم يشعرن بدونية أمامه، فهي تعلم أنها لا تستطيع الحياة من دون الرجل كما أنه لا يستطيع الحياة من دونها، كل منهما يكمل الآخر. لكن هل تستطيع الحياة ضمن مفهومها بمعزل عن محيطها؟..

قالت سارة - وهي مدرّسة أمريكية -: لقد عملت على أن تسير حياتي بسلام.

سارة امرأة جميلة مثقفة تعمل في سلك التدريس، وناجحة بحياتها العملية، لم تستطع الاستمرار بحياتها الزوجية رغم كل مواصفاتها التي تصل إلى حد المثالية، تقول: لقد كان علي أن أعمل طيلة اليوم لأشارك في نصف مصاريف المنزل، ثم كان مطلوباً مني أن أقوم بكل الواجبات المنزلية دون أدنى مساعدة من قبله، وبعد ذلك علي أن أتحمل نزواته.

ومن ثم نجد أن الجو السائد رغم أنه يعطي الحرية أكثر من الأزمان السابقة للمرأة كي تختار طريقها بالحياة، إلا أنها لا تستطيع العيش وحدها، فهي جزء من محيطها، ولا بد أن تتأثر بمفاهيمه ومسلكياته.

تأثير الاستقلال الاقتصادي
وإلزام المرأة بالعمل في كرامتها

إن حصول المرأة على الاستقلال الاقتصادي، جعلها مطالبة بالعمل لتنفق على نفسها، وفرضت عليها المشاركة بالإنفاق على أسرتها، وهذا ماجعلها محتاجه للعمل تحت طائلة أي ظرف، بل تراجع دورها كأم أمام مسؤولياتها الاقتصادية، وهذه الحاجة جعلت المرأة عرضة للوقوع في الكثير من المآزق التي هي في غنى عنها، ومن ذلك ما سبق وذكرنا من وقوعها ضحية لعصابات الرقيق الأبيض العالمية، كما أن حاجتها للعمل شجع أصحاب العمل على ابتزازها، فإما أن تخضع لمطالبهم الشاذة القذرة، أو أن تفقد عملها. وهناك دراسات وإحصائيات تظهر نسبة النساء اللواتي يتعرضن لتحرشات جنسية في أماكن العمل:

- ٤٠٪ إلى ٧٠٪ من النساء يتعرضن لتحرشات جنسية في أماكن العمل.
- و١٥٠٠٠ حالة من التحرش الجنسي يتقدمن بشكوى كل عام[١].

وهناك استفتاء هاتفي قامت به Louis Harris and Associates شمل ٧٨٢ عامل وعاملة كشف النقاب عن أن:

- ٣١٪ من النساء العاملات تعرضن لتحرشات جنسية في العمل.
- ٦٢٪ من هؤلاء النساء لم يتقدمن بشكوى.
- ١٠٠٪ من النساء ادعين أن ما تعرضن له من تحرشات كان من قبل الرجال .

ومن هؤلاء النساء اللواتي تعرضن للتحرشات:

- ٤٣ ٪ تعرضن للتحرشات من قبل رئيسهن في العمل.
- ٢٧٪ من قبل موظفين أعلى درجة منهن.

---

(١) Equal Employment Opportunity Commission (EEOC).

- ١٩٪ من قبل موظفين من نفس درجتهن في العمل.
- ٨٪ من قبل موظفين أقل منهن درجة في العمل.

إن علم المرأة وعملها ومشاركتها في الحياة الاجتماعية مطلوب، وهي من خلال تلك المشاركات تغني مجتمعها بما تقدمه من خدمات، وتقوي انتماءها لمجتمعها، ومن ناحية أخرى نجد أن المرأة الفعالة في مجتمعها تكتسب وعياً وإمكانات على تربية نشء أكثر فعالية وأكثر عطاءً لمجتمعه، لكن هذه المشاركة من قبل المرأة لايجب أن تكون على حساب كرامتها، وعلى حساب دورها الرئيس في الحياة كأم، وكذلك يحسب للمرأة مساهمتها في الإنفاق على أسرتها، شريطة ألا تتحول تلك المساهمة إلى فريضة تعفي الرجل من مسؤولياته تجاه أسرته.

نتائج الإباحة الجنسية على المجتمع وعلى الأبناء

لقد جلبت الإباحة الجنسية الوبال على المرأة بالدرجة الأولى، وعلى الأبناء والمجتمع بشكل عام.

إن المرأة التي تقبل بالعلاقات العابرة أو بالمساكنة دون عقد زواج رسمي، تكون قد أعطت كل ما لديها جاعلة مستقبل حياتها في مهب الريح، فلا شيء يلزم أياً من الطرفين على البقاء مع الآخر في حال تراجع الرغبة في ذلك، وغالباً ما تنتهي هذه العلاقات سريعاً مخلفة وراءها أطفالاً، مفتقدين أحد الأبوين، وغالباً ما يغيب الأب تاركاً مسؤولية الأطفال على الأم. وهذا أحد الأضرار التي تعاني منها المرأة دون الرجل. أما معاناة المرأة الحقيقية فتبدأ مع

تقدم السن، إذ تكون أنفقت زهرة شبابها بعلاقات قابلة للانفكاك بسهولة، وعندما يتقدم بها العمر لاتجد من ينجذب إليها، بينما نجد أن روابط الزواج التقليدي بما تحمل من التزامات وجدية في التعاطي مع الحياة، يعمل على بناء نسيج بين الطرفين يقوى مع الأيام، ويشكل دعامة حقيقية تقف حائلاً أمام عوامل الزمن. فالعلاقة بين الذكر والأنثى ليست مجرد متعة جنسية متبادلة بين الاثنين، إنها رابطة بين اثنين، جمعت بينهما حياة مشتركة لتكوين أسرة وأبناء، ويجب أن يكون هناك التزام متبادل، ومسؤوليات مشتركة.

وتظهر لنا الدراسات الميدانية والإحصائيات مدى فداحة أضرار تلك العلاقات على الأبناء، وافتقادها للمسؤولية، ففي إحدى الدراسات عن المجتمع الأميركي تقول:

- ١ من ٢ يعيشون مع أحد الأبوين في مرحلة من مراحل الطفولة.
- ١ من ٣ ولدوا من أبوين غير متزوجين.
- ١ من ٤ يعيشون مع أحد الأبوين.
- ١ من ٨ ولدوا من أمهات مراهقات.

- ١ من ٢٥ يعيشون مع آباء غير آبائهم[١].

وأن ٣٠٪ من العائلات الأمريكية مكونة من أحد الأبوين فقط. وأن ٨٠٪ من تلك النسبة الأم هي التي ترعى الأبناء.

والدراسة تقول: إن الأطفال من والدين مطلقين معرضون للاكتئاب أكثر بسبعة أضعاف من الأطفال الذين في سنهم ويعيشون في أسرة من أب وأم غير مطلقين.

وتظهر إحدى الدراسات أن غياب الأب سبب قوي في انتشار الجرائم وجنوح الأحداث، فمعظم المتهمين بجرائم عنف، هم ذكور نشؤوا في عائلات من دون آباء[٢].

٧٥٪ من المراهقين الذين يعالجون نتيجة إدمانهم على المخدرات ينتمون لعائلة مكونة من أحد الأبوين[٣].

١ من ٥ من الأطفال لديهم مشاكل تعليمية ونفسية وسلوكية بسبب تغيير النظام في العائلة[٤].

---

(١) The State of America's Children, 1998 Yearbook, children's Defense Fund

(٢) U.S Census Bureau report, Child Support and Alimony: 1989,released Oct.11,1991

(٣) (Children's Defense Fund).

(٤) (National Center for Health Statistics).

أكثر من نصف المراهقين المودعين بسجن الأحداث نتيجة ارتكابهم جرائم، ينتمون إلى عائلات مكونة من أحد الأبوين(١).

٩ ملايين طفل أميركي يواجهون خطر تعطيل قدراتهم العطائية في سن البلوغ. ١ من ٧ من الأطفال يواجه على الأقل أربع مشاكل أو أخطار، والتي تتضمن النشأة في عائلة مكونة من أحد الأبوين. كذلك أظهرت الإحصائيات أن الأطفال الذين يواجهون عدة أخطار، هناك احتمال أكبر أن يكون لديهم مشاكل في التركيز، ومشاكل صحية، ومشاكل في الاتصال مع العالم الخارجي(٢).

- **إحصائيات محاولات الانتحار**

كل ٧٨ ثانية يحاول مراهق الانتحار، وكل ٩٠ ثانية ينجح أحدهم في الانتحار(٣).

٦٣ من تلك الحالات ينتمون لعائلات مكونة من أحد الأبوين(٤).

---

(١) (Children's Defense Fund).

(٢) (1999 Kids Count Survey - Annie E. Casey Foundation).

(٣) (National Center for Health Statistics).

(٤) (FBI Law Enforcement Bulletin - Investigative Aid).

- **الحمل لدى المراهقات**

٧٥٪ من المراهقات الحوامل ينتمين إلى عائلات مكونة من أحد الأبوين[١].

١٣٪ من جميع الأطفال الذين يولدون في الولايات المتحدة الأميركية، يولدون من أمهات مراهقات، هناك مليون حامل مراهقة كل عام. والأسباب تعود إلى التفكك الأسري، وفقدان الأهل[٢].

- **إحصائيات الجرائم**

أظهرت الإحصائيات أن الأطفال الذين ينتمون إلى عائلات مكونة من أحد الأبوين، أكثر استعداداً للانضمام إلى العصابات، من الأطفال الذين ينتمون إلى عائلات طبيعية مكونة من أبوين[٣].

---

(١) (Children in need: Investment Strategies... Committee for Economic Development).

(٢) (University of Kentucky, Departments of Psychology).

(٣) (Chicago Crime Commission Report,1995).

- **أهمية الأسرة**

وهكذا رأينا أن الدعوة إلى استقلال المرأة الاقتصادي، والدعوة إلى الحرية الجنسية ما هو إلا تقويض لأركان الأسرة، ودافع لانتشار الفوضى في المجتمعات، وما يترتب عليه من فساد للأبناء وتفشٍّ للجريمة.

ومن تلك النتائج تظهر أهمية الأسرة، فهي اللبنة الأولى في المجتمع، إن صلحت صلح المجتمع، وإن فسدت فسد المجتمع، والعلاقة بين المرأة والرجل في ظل الأسرة، وكما شرعته الأديان، هو حماية لحقوقها، كما أنه يوفر للأبناء جواً سوياً من الألفة والمحبة. وأن توزيع الأدوار الذي استنه الخالق ليس مجرد قانون جامد يفرض على الرجل أو على المرأة، بل هو أساس لبناء نسيج متشابك من العلاقات الإنسانية، والمشاعر العاطفية، التي تضفي على الحياة الكثير من المتعة، وتزيل ما بها من جفاف وجمود، فيقبل الإنسان على العمل والعطاء بحب وسعادة، يعين على استمرار الحياة. بل إن العمل المنزلي الذي احتقره لينين، ووجد له حلاً عن طريق الخدمات العامة، فإن المرأة تجد فيه متعة، فما تقوم به ليس مجرد واجب مفروض عليها، بل هو تعبير عن حبها لزوجها ولأبنائها، وهذا المعنى يشعرها بسعادة

غامرة، ولا تشعر بحقارة ذلك العمل، كما وصفه لينين، فليس أجمل لمشاعر الطفل من اهتمام والدته به، سواء بالملبس أو المأكل أو بنومه، وتعليمه، فهو يستشعر الحب من خلال ذلك الاهتمام، وكذلك الزوج وعناية زوجته به، إنها تعبير عن الحب بأساليب عملية، تشعر بالصدق، وتقوي الروابط بين أفراد الأسرة الواحدة. أما الأب الذي يكدح من أجل توفير مستلزمات أسرته، فإنه يفعل ذلك بحب، فهناك من يشاركه حياته ويشاركه نجاحه. ونرى الرجل الناجح المقبل على عمله بنشاط فنعزو ذلك لسعادته الزوجية وللحب المتبادل بين أبناء الأسرة الواحدة. ولن نبالغ بالمثالية فنقول: إن الحياة الزوجية والأسرة الناجحة هي أسرة لا تعاني من خلافات أو أزمات بين أفرادها، لكن هذه الخلافات في ظل الالتزامات التي فرضها الدين على الأسرة تقف حائلاً أمام تفكك الأسرة وانهيارها، ومع الأيام والسنين تزداد قوة الروابط، وتصبح الأسرة جسداً واحداً، فينظر الزوج إلى خطوط الزمن في محيا زوجته فيقرأ فيها أيام عمره بمرها وحلوها، ويأخذ الجمال أو الجاذبية التي كانت سبب الارتباط معنىً آخر أعمق، وتنظر هي إلى شعره الأبيض فترى فيه سنوات انقضت من عمرها، وتشعر بعمق الرابطة

بينها وبينه، ولا تعود قلقة لعوامل الزمن وما يتركه من بصمات. وينعكس ذلك على حياة الأبناء ونشأتهم ونجاحهم في الحياة.

وفي المقابل، نجد أن العلاقات التي لا توثق بالزواج، فإنها غير ملزمة لأي من الطرفين، وقابلة للانهيار في أي لحظة، وهذا ما يحدث دوماً، ولكي تبقى المرأة مرغوباً بها تصاب بهوس الحفاظ على جمالها رغم الزمن الذي لايمكن إيقافه، ويأخذ موضوع الجمال معظم اهتماماتها ووقتها ومالها، ثم تتغاضى عن آثاره السلبية التي غالباً ما تؤدي إلى أمراض خطيرة، ورغم كل ذلك وفي نهاية المطاف تجد المرأة نفسها وحيدة، وقد ذبل جمالها، وذهب شبابها. وينشأ أبناء تلك العلاقات الحرة، مرضى نفسانيين وخطراً على المجتمع كما أظهرت الإحصائيات.



الرجل
المرأة المجتمع
نصف
من حق المرأة
أن تتعلم
نعم للمساواة
الرجل
=
المرأة
أوقفوا
العنف
ضد المرأة
لا للتعذيب
الحرية
نعم
للمساواة

المرأة في المجتمعات الإسلامية

هل المرأة في المجتمعات الإسلامية تتمتع بوضع أفضل من شقيقتها في المجتمعات العلمانية، أو في المجتمعات التي تدين بغير الإسلام؟

إن الصورة السائدة في معظم المجتمعات الإسلامية، صورة سلبية، صورة امرأة تعاني التخلف، فاقدة للكثير من حقوقها، ينظر إليها نظرة دونية، وهي لدى العامة صاحبة الخطيئة الأولى ومن أنزل آدم من الجنة، وهناك الكثير ممن يدينون بالإسلام يحرمون المرأة من حقها في التعليم، وإذا تعلمت، فإن تعليمها يخضع لشروط صارمة، كتجنب أي نوع من الاختلاط بالجنس الآخر، رغم التزامها باللباس الإسلامي المحتشم، ورغم تحليها بالأخلاق الرفيعة، ويجب

ألاً تبعد المدرسة عن مكان السكن، وألاً يتعرض الأهل لأدنى مشقة في سبيل تعليمها، فمن وجهة نظر أولئك الأهالي، أن المكان الطبعي للمرأة هو المنزل، وزاوية المطبخ تحديداً، وبالطبع هي محرومة من أي مشاركة لها في الشؤون العامة للمجتمع، ومن ثمَّ لاتمثيل لها في مجالس الشعب، ومهما ارتقت بعلمها لايحق لها تبوؤ أي منصب رسمي في الدولة. وهناك قول يحفظه الكثيرون عن ظهر قلب وينسب إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو: "شاوروهن وخالفوهن في الرأي" فهل ذلك حقاً من الإسلام أم أن الموروث القديم عن المرأة، لايكاد يختفي حتى يطل برأسه ثانية، بل وإن لم يجد مقاومة يعود ليفرد جناحيه على المجتمعات، مجرداً المرأة من حقوقها ومن فعاليتها بالمجتمع.

إذن، كيف ينظر الإسلام إلى المرأة؟.. وهل هناك فرق بين بعض ممن يسمى مسلمين وبين الإسلام؟..

- **الخطيئة الأولى**

في جميع الأديان والمواريث الشعبية حُمِّلت المرأة وزر الخطيئة الأولى، وبسببها - حسب المعتقدات - كان خروج آدم من الجنة وشقائه على الأرض، فهي في نظر الجميع

بوابة الشيطان (وبندورا) التي جلبت الشقاء للبشرية. فهل هي في القرآن الكريم كذاك؟ هل هي شؤم وعار؟..

يقول تعالى في كتابه الحكيم قاصاً علينا نبأ الخطيئة الأولى والخروج من الجنة: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٥-٣٦]. إذن، لم يتهم القرآن الكريم حواء بالغواية، بل اتهم الشيطان، وأنه أزل الاثنين معاً، ومن ثم كانت العقوبة والخروج من الجنة، والهبوط إلى الأرض، التي ستكون لهم مستقراً مؤقتاً، وستكون هناك عداوة بين البشر سلالة سيدنا آدم، وهذا بسبب إبليس، وبسبب الضعف البشري الذي ينزع إلى اتباع الأهواء، ففي سورة الأعراف، يقول الله تعالى بعد أن بين عصيان إبليس ورفضه السجود لآدم، وقسمه بأن يغوي بني آدم، ويبعدهم عن الصراط المستقيم، يقول تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩-٢٠]، فالخطيئة مشتركة، والذي أغواهما معاً هو إبليس، ويقول تعالى في

سورة طه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ٢٠/ ١١٥]، أي نسي أوامر الخالق ووصاياه، ولم يكن لديه صبرٌ وحزمٌ عما نهاه عنه، فهنا الخطاب موجه لآدم، ويقول تعالى محذراً آدم من عداوة إبليس: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ٢٠/ ١١٧-١١٨].

هل كانت إرادة الخالق أن يسكن آدم وحواء وذريتهما خالدين في الجنة لولا خطيئتهما؟.. وهل يجب أن يلاحقنا وزر الخطيئة الأولى مدى الحياة، كاللعنة الأبدية؟.. وبها يظلم القوي منا الضعيف؟....

لنعد إلى بداية الخلق كما يخبرنا بها القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠-٣٤].

عندما علم الملائكة بأن الله عز وجل سيجعل في الأرض خليفة من البشر يطبقون شرع الله عز وجل في الأرض، قالوا متعجبين: كيف تستخلف أناساً فيهم من يفسد ويسفك الدماء؟ ونحن ننزهك عما لايليق بك، ونعظم أمرك، ونطهر ذكرك - ومعروف أن الملائكة لايحملون النوازع المتضاربة التي يحملها البشر، فهم مجبولون على الخير وعلى إطاعة أوامر الخالق، دون مجهود ودون وجود أهواء تصدهم عن طريق الحق - قال لهم عز وجل: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أي هناك حكمة لا يعلمها إلا الله عز وجل، ومنَّ الله على آدم بعلم لايعلمه سواه، ففضله على غيره من المخلوقات، وكرَّم آدم بأن طلب من الملائكة أن يسجدوا له سجود تحية وتعظيم، فسجدوا إلا إبليس - وهو من الجن - امتنع وتكبر، فكان بذلك من الكافرين. وهذه القصة تدلل منذ البداية على أن الخالق عز وجل أراد أن يجعل له خليفة في الأرض، من قوله عز وجل: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾، فخلق آدم بطبيعة تختلف عن طبيعة المخلوقات الأخرى، وفضله بالعلم، وبإرادة حرة مستقلة، ووهبه العقل رافعاً به منزلته. إذن لماذا قال له: ﴿ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾؟. التفسير الذي يقترب من المنطق هو أن الله عز وجل خلق الإنسان للجنة، وليس للحياة الدنيا، وما

الحياة الدنيا إلا محطة لابد منها لاختبار إرادة هذا الإنسان وقدرته على إطاعة أوامر الخالق عز وجل، ومن ثم استحقاقه الجنة أو عدم استحقاقه إياها، فهي دار ابتلاء واختبار، ولم يرد الخالق إنزالهما إلى الدنيا دون برهان بين بأنهم ليسوا معصومين من الخطأ والنسيان، فلولا هذا الاختبار في الجنة قبل الهبوط، لقالوا: لو بقينا بالجنة لما عصينا أوامر الخالق، لكنه أراهما أيضاً رحمته، إذ أعطاهما فرصة أخرى، وكأنه يقول: إن الطبيعة البشرية مجبولة على النسيان والضعف أمام المعاصي، ويجب على الإنسان أن يقاوم هذا الضعف، وأن يقاوم وسوسة الشيطان الذي دوره الإعانة على العصيان، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٠] «أي: ألقى لهما بصوت خفي لإغرائهما بالأكل من الشجرة، ليظهر لهما ما كان مستوراً من العورات التي يقبح كشفها... أي قال في وسوسته لهما: ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا ملكين أو تصبحا من المخلدين في الجنة»[١]، أي إن ما قام به الشيطان من تحريض لآدم

---

(١) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ١/ ٤٠٧، دار الفكر.

وحواء على عصيان الخالق، لم يكن بشكل مباشر، بل عن طريق إيهامهما أن في ذلك مصلحة لهما، فظنا أن في أكلهما من الشجرة خلوداً لهما في الجنة، فكانت النتيجة ظهور سوآتهما والخروج من الجنة، وكما أن للجسد سوءات أو عورات يقبح ظهورها، كذلك تحمل النفس البشرية نوازع للشر يقبح الجنوح لها، ودور الشيطان تقوية هذه النوازع، وتزيين السبيل لظهورها، عن طريق تزيين طلب السلطه مثلاً، فيظلم المرء من أجل الوصول إلى السلطة، متناسياً تحريم الخالق للظلم وعقوبته عليه، ويزين له الشيطان الحياة الدنيا وكأنه غير مفارقها، فيعمل لها ناسياً أن هناك حساباً وعقاباً. ومع ذلك يرينا الله عز وجل رحمته بعفوه عن آدم وحواء وإعطائهم فرصة أخرى، وكأنه يقول: إن تمكن منكم الضعف وارتكبتم المعاصي، فلاتقنطوا من رحمة الله عز وجل واستغفروه يغفر لكم ويرحمكم.

إذن، الخطيئة الأولى ليست خطيئة حواء، بل هي كناية على أن البشر خطاؤون، وأن في الابتعاد عن أوامر الخالق إظهار لسوءات الإنسان ولشروره، ومع ذلك فرحمة الله واسعة فإن استطاع الإنسان رؤية سوءاته وتراجع عنها واعتذر لربه، فإن الله غفورٌ رحيم. وفي ذلك حديث الرسول الكريم ﷺ يقول: "إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب

مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها". وفي حديث صحيح آخر يقول ﷺ: "لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دَوِيّة مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام، فاستيقظ، وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده".

إذن حملت المرأة وزر الخطيئة الأولى زوراً وبهتاناً.

• الإسلام يحرم عادات الجاهلية، ويساوى بين حق الذكر والأنثى في الحياة

لقد جاء الإسلام والجزيرة العربية تحكمها عادات بالية، وينتشر فيها الظلم، وكانت المرأة من أشد الناس ظلماً، إذ تعد من متاع الرجل تورَث كما تورَث متاعه بعد وفاته، وكان يتلقى نبأ ميلاد الأنثى بكثير من السوء، إذ يقول تعالى عن ذلك في كتابه الحكيم: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ١٦/٥٨-٥٩]. وكان

لشدة استيائه يتخلص من الفتاة بأن يحفر لها حفرة ويدسها فيها، ثم يهيل عليها التراب وهي حيَّة، وهذه عادة لم تكن غريبة على العديد من الشعوب، وكلٌ له تقاليده التي تختلف من قريب أو بعيد عن الآخرين كما مربنا، ومن أحد أسباب هذا الوأد خوفُ الفقر، فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣١] فجاء الإسلام لينتشل المرأة من هذا الظلم الذي يحيق بها من كل جانب، ويقر لها بحقها في الحياة كالرجل تماماً، ويدافع عن حقوقها، فيقول تعالى مؤنباً متوعداً: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨١/ ٨-٩]. وبذلك نرى أن الإسلام دين عدالة ومساواة.

• المساواة في الخطاب بين الذكر والأنثى في الشريعة الإسلامية

الأصل في الخطاب في الشريعة الإسلامية، أنه موجه للجنسين معاً، إلا أن يكون هناك خصوصيات تفرق بين الذكر والأنثى، وكما قال ابن رشد في بداية المجتهد: "الأصل أن حكمهما واحد إلا أن يثبت في ذلك فارق شرعي".

يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ٤/ ١]. وكلمة الناس في اللغة العربية تعني الجنسين الذكر والأنثى، وتثبيتاً لذلك، تقول الآية الكريمة إن الذكر والأنثى سواسية أمام الخالق، يكمل بعضهم بعضاً، كلٌ منهم خلق من أجل دور له في هذه الحياة، والأصل في الخلق هو عبادة الخالق عز وجل، إذ يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٦]. ومن هذا المنطلق يقيّم الله عز وجل البشر دون تمييز فيقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٣]. وتأكيداً على المساواة في الخطاب بين الرجل والأنثى يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٧]. ويقول أيضاً: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٥].

وفي السنة، قال رسول الله ﷺ: "النساء شقائق الرجال" (رواه أبو داوود).

لقد استجابت المرأة المسلمة لهذا الخطاب، وقامت بدورها على أكمل وجه، فكان لها دورٌ إيجابيٌ أسهم في رفعة مجتمعها، ويتمثل لنا ذلك في أم سلمة، فعن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت: كنت أسمع الناس يذكرون الحوض، ولم أسمع ذلك من رسول الله ﷺ فلما كان يوماً من ذلك والجارية تمشطني فسمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: "أيها الناس" فقلت للجارية: استأخري عني. قالت: إنما دعا الرجال ولم يدع النساء! فقلت: إني من الناس. فقال رسول الله ﷺ: "إني لكم فرط على الحوض فإياي لا يأتين أحدكم فيُذبُّ عني كما يُذب البعير الضال، فأقول: فيم هذا؟ فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول سحقاً".

المرأة في القرآن الكريم

• السيدة مريم

وقبل رسالة الإسلام بقرون وفي أحضان المجتمع اليهودي وفي ظل الحكم الروماني، حيث بلغ ظلم المرأة حده، جاءت قصة السيدة مريم العذراء متحدية تلك النظرة الدونيه للمرأة رافعة من شأنها، قصه يرويها لنا القرآن الكريم. وتبدأ قصة السيدة مريم مع والدتها التي نذرت مافي بطنها خالصاً لعبادة الله وطاعته، إذ يقول تعالى على لسان أم مريم ويقال: إن اسمها حنه بنت فاقود: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ

وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٥-٣٧].

لقد كانت امرأة عمران من العابدات التقيات، وكانت في مجتمع تضطهد فيه المرأة ولا يتقبل منها كالرجل، فنذرت حملها لطاعة الله وفي خدمة بيت الله المسجد الأقصى، مخلصاً في عبادته، مبتعداً عن مشاغل الدنيا، وهي تأمل أن يكون هذا المولود ذكراً. فلما وضعتها ووجدت أنها أنثى قالت متحسرة معتذرة: يارب إنها أنثى. وعلى قول ابن عباس لم يكن يقبل في النذر إلا الذكور، فقبلها الله عز وجل. وفي قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: ليس الذكر الذي طلبته كالأنثى التي وهبها الله لها، بل هي أفضل، وتقبلها ربها قبولاً حسناً، ورباها تربية كاملة، وجعل زكريا كافلاً لها، حتى إذا بلغت مبلغ النساء انزوت في محرابها تتعبد. ويقول تعالى في تتمة القصة: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ

يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٤٢-٤٦].

لقد جعل الله سبحانه وتعالى مريم عليها السلام بمرتبة الأنبياء، وجعل في ولادتها معجزة إذ حملت ووضعت ولم يمسسها بشر، وكأن في قصتها تحدياً صارخاً للمجتمع الذي كان يضطهد المرأة، وهو المجتمع اليهودي، والمجتمع الروماني، كما أن الله عز وجل كرم من خلالها المرأة أماً. والأمومة هي من صميم مهام المرأة التي خلقت من أجلها.

- **تكريم الإسلام للمرأة أماً**

أوصى الله عز وجل بالوالدين إحساناً، وبالأم بشكل خاص، مقدراً دورها المهم والشاق، يقول تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ١٥]. وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٤].

وفي السنة الشريفة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من أحق الناس بحسن صحبتي؟ قال: "أمك". قال: ثم من؟ قال:

"ثم أمك" قال: ثم من؟ قال: "ثم أمك" قال: ثم من؟ قال: "ثم أبوك".

ويُذكّر القرآن الكريم بأم موسى عليه السلام، ومعاناتها من ظلم فرعون وجنوده، ثم امتثالها لأمر الله عز وجل، بأن ألقت ابنها بالنهر، فأخذه فرعون، يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٢٨/٧-١٠]. وأنزل الله عز وجل الصبر على قلب أم موسى، وقالت امرأة فرعون لزوجها: لعله يكون فرحة ومسرة وقرة عين لنا، فاستوهبته من فرعون فوهبه لها، فكان لها دور في إنقاذ موسى من بطش فرعون وجنوده، ثم قامت برعايته إلى أن اشتد عوده واستعد لتأدية رسالته.

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً حسناً بامرأة فرعون، فرغم حياة الترف التي كانت تحياها، ورغم علو مكانتها

الدنيوية كزوجة للملك، إلا أن ذلك لم يلقِ ظلالاً على بصيرتها، ويحجب عنها رؤية الحق، فرفضت الظلم وقاومته، يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ٦٦/ ١١].

- **جعل الله عز وجل من فعل هاجر شعيرة تؤدى إلى يوم الدين**

هاجر، هي زوجة سيدنا إبراهيم عليه السلام، وأم سيدنا إسماعيل عليه السلام، جاء بها سيدنا إبراهيم وابنها رضيع، ووضعها عند البيت العتيق في مكة، أرض خالية قاحلة ليس بها ماء، "ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفل إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟ فقالت له مراراً. وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: الله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيّعنا، ثم رجعت. وفي رواية: يا إبراهيم إلى من تتركنا؟. قال: إلى الله، قالت: رضيت بالله.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية، حيث لايرونه، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات، ورفع يديه

فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٧]، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء (من سقاء تركه إبراهيم) حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى... فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت: صه، تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غَوَاثٍ، فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تُحوضُه، وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت» أو قال: «لو لم

تغرف من زمزم لكانت زمزم عيناً معيناً»، قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لاتخافوا الضيعة، فإن هذا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رُفقَةٌ من جرهم، أو أهل بيت من جرهم، مقبلين من طريق كَدَاء، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شبَّ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم. [رواه البخاري].

كانت حكمة الله تقتضي إعمار مكة، ومن ثم إعادة بناء البيت الحرام على يد إبراهيم وابنه إسماعيل، فاختار لذلك هاجر بما تحمل من قوة الإيمان والتوكل على الله والصبر

على المتاعب، وحيدة أنشأت ابنها تنشئة حسنةً وهيأته للمهمة التي أوكله الله لها، وكما اعتقدت لم يضيعها الخالق، ولم يتركها بحيرتها، فهاهي الأرض القاحلة تتفجر عن نبع ماء مبارك يبقى ماؤه جارياً إلى يوم الدين، وهاهو المكان القفر يعج بالبشر. ويبقى سعي هاجر شعيرة واجبة يؤديها المسلمون إلى يوم الدين- ومن يتركها في حج أو عمرة يأثم - تكريماً لها وتذكيراً بصبرها وثباتها وإيمانها بالخالق عز وجل، وتوكلها عليه.

- **بلقيس ملكة سبأ**

جاء ذكر ملكة سبأ في القرآن الكريم، وكانت سبأ من الممالك الواسعة الغنية، وكانت في زمن سيدنا سليمان عليه السلام، وجاء خبرها إلى سليمان عن طريق الهدهد الذي وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، فبعث لها سليمان بكتاب يدعوها فيه لعبادة الله عز وجل، يقول تعالى على لسان سليمان: ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا

حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٢٧/٢٧-٣٣]. لقد أرانا القرآن الكريم قوتها وحكمتها، ولم يعترض على أنها امرأة تولت أمر قومها، وترأست رجالاً أشداء أقوياء، لكن الاعتراض كان على عبادتها للمخلوقات التي لاتنفع ولا تضر إلا بأمر الخالق، ثم تتجلى حكمتها باستشارتها قومها.

ويكمل القرآن قصة ملكة سبأ، فيقول الله تعالى على لسانها: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٧/ ٣٤-٤٠]. وتظهر الآيات رجاحة عقلها وذكائها، فتقول لقومها: إن غاية الملوك دنيوية، وهم إذا دخلوا قرية أمعنوا في قتل أهلها وذلهم، لذلك هي جنحت

للسلم، وأرادت اختبار سليمان بإرسال هداياها الثمينة له، فلما رفضها ذهبت بنفسها مع قادتها، لتتحقق أكثر، ولما علم سليمان بقدومها أراد اختبار ذكائها فجاء بعرشها وطلب تنكيره، قال تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٤١-٤٢]. لقد كانت إجابتها حكيمة، فلم تنكره ولم تؤكد أنه هو، ثم أسلمت، قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٤٤]، لم تترك دينها وتتبع دين سليمان عن خوف أو رهبة، بل بعد أن تيقنت أنه الدين الحق.

- **فتاة مدين**

فر موسى عليه السلام من مصر خائفاً من بطش قوم فرعون، سار ثماني ليالٍ قاصداً بلاد مدين، دون رفيق أو معين، ودون زاد يمده بالقوة.

وصل مدين منهكاً متعباً، فوجد حشداً من الناس يتزاحمون على مورد ماء، كلٌ يعتمد على قدرته في بلوغ المورد والاستزاده منه، ووجد امرأتين تفصلان غنمهما حتى لا تختلط بأغنام الآخرين، فسألهما ما خطبهما، فقالتا:

لانسقي حتى ينصرف الرعاء حذراً من مزاحمة الرجال، وذكرتا له اضطرارهما إلى المجيء، بسبب كبر سن أبيهما وضعفه، فما كان من موسى إلا أن سقى لهما أغنامها، وتولى إلى الظل. عادت الفتاتان إلى والدهما مبكرتين على غير العادة، وأخبرتاه بأمر ذلك الشاب، فأرسل الشيخ إحدى ابنتيه في طلب موسى، فلما عاد معها لاحظت عفته وأمانته، إذ سار أمامها وسارت خلفه، حتى لا تمتد عينه إليها وهي الغريبة عنه، فعرفت بفراستها أمانته كما عرفت من قبل قوته حين سقى لهما أغنامهما، رغم عناء السفر الطويل القاسي الذي تحمله، فما كان منها إلا أن قالت لأبيها: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٦]. وهكذا يظهر لنا القرآن الكريم فراسة المرأة وقدرتها على تمييز من يصلح للعمل، وقولها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ وكأنها تضع قانوناً لمن يريد استئجار عامل.

المرأة في صدر الإسلام

لم تكن نماذج القرآن الكريم بعيدة عن نماذج المرأة المسلمة في صدر الإسلام، فبعد أن كانت من سقط المتاع في البيت أعاد لها الإسلام كيانها وكرامتها، وبعد أن كانت تابعاً لوالدها أو زوجها أو ولدها أصبحت مستقلة بقرارها، ومما زاد من إكرامها أن أول من آمن برسالة النبي ﷺ وكان عوناً له على ما لقيه من متاعب في بداية الدعوة الإسلامية كانت امرأة، هي زوجته السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، والتي حزن حزناً شديداً لوفاتها. كما كانت أول شهيدة في الإسلام امرأة هي سمية أم عمار، وفي بداية الدعوة الإسلامية، وعندما أخذ الرسول ﷺ في المبايعة، لم يبايع الرجال دون النساء، بل بايع، النساء كما بايع الرجال، إذ يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا

﴿يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الممتحنة: ٦٠/١٢].

• المرأة مهاجرة في سبيل عقيدتها

وقد هاجرت المرأة جنباً إلى جنب مع الرجل من أجل دينها، وكانت أسماء بنت عميس من الذين هاجروا إلى الحبشة، ونجدها ترد على عمر بن الخطاب، عندما قال لها عمر: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله منكم. فغضبت وقالت: كلا والله كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وايم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب حتى أذكر ما قلت لرسول الله ﷺ... فقال لها رسول الله ﷺ: "... ليس بأحق بي منكم. وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان" (متفق عليه).

ونرى أم كلثوم بنت عقبة تفارق أهلها فراراً بدينها، "عن مروان والمسور بن مخرمة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: "... وجاء المؤمنات مهاجرات، وكانت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط ممن خرج إلى رسول الله ﷺ

يومئذ وهي عاتق فجاء أهلها يسألون النبي ﷺ أن يرجعها إليهم فلم يرجعها إليهم". (رواه البخاري)

- **إجارة المرأة للمحارب**

وها هي أم هانئ تجير محارباً، وعند اعتراض أخيها، تلجأ للرسول ﷺ فيقرها على فعلها، محققاً لها بذلك الاستقلالية، ومحترماً رأيها وإرادتها.

"عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: ذهبت على رسول الله ﷺ عام الفتح.. فسلمت عليه.. فقال: "مرحباً بأم هانئ... " فقلت: يارسول الله زعم ابن أمي علي (ابن أبي طالب) أنه قاتل رجلاً قد أجرته فلان ابن هبيرة. فقال رسول الله ﷺ "قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ". (متفق عليه).

- **الرسول صلى الله عليه وسلم يعمل بمشورة أم سلمة**

فنجدها حكيمة ذات رأي سديد، مثال أم سلمة زوجة الرسول ﷺ، عن المسور بن مخرمة ومروان قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية... فلما فرغ من قضية الكتاب (أي كتاب الصلح مع قريش)، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» قال: فوالله ما قام منهم رجل

حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله أتحبّ ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَكَ وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك؛ نحر بُدْنَهُ ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً.. (رواه البخاري)

لقد ساوى الإسلام عملياً بالحقوق والواجبات بين المرأة والرجل، فهل تقبل الرجل الذي عاش عادات الجاهلية هذه المساواة بسهولة ويسر؟..

- **دور المرأة المسلمة في التعليم**

ساوى الإسلام بين المرأة والرجل في التعليم، فحرصت المرأة على أخذ فرصتها كاملة، وعندما شعرت أن الرجل يستمع لرسول الله ﷺ أكثر احتجت وطالبت بالمزيد، عن أبي سعيد قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك. (وفي رواية: قال النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال) فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله. فقال: "اجتمعن في يوم كذا وكذا". فاجتمعن فأتاهن رسول الله ﷺ فعلمهن مما علمه الله

ثم قال: " مامنكن امرأة تقدم بين يديها من ولدها ثلاثة إلا كان لها حجاباً من النار" فقالت امرأة منهن: يا رسول الله اثنين؟ قال: فأعادتها مرتين ثم قال: " واثنين واثنين واثنين". (متفق عليه).

عندما يذكر العلم، لا بد أن تذكر السيدة عائشة رضي الله عنها، كانت غزيرة العلم، حافظة للقرآن، عالمة بكل آية من آياته، وبكل حكم من أحكامه، متفقّهة بسنة الرسول ﷺ، وكانت راوية للحديث عن رسول الله ﷺ، حافظة للشعر، وعالمة بأيام العرب وأنسابهم، وأكثر من ذلك كانت طبيبة. ولم تكن تحتفظ بهذا العلم الواسع لنفسها، بل كانت تعطي من معينها قدر استطاعتها، فكان يتلقى عنها العلم الكثير من الصحابيات والتابعات، وينقلنه بدورهن إلى غيرهن.

- **المرأة المسلمة والسياسة**

إن الفضاءات التي فتحها الإسلام أمام المرأة، من مشاركات فعلية في أعباء المجتمع جنباً إلى جنب مع الرجل، واهتمامها بالأمور العامة، لكونها تمتلك وعياً سياسياً، ورأياً جديراً بالأخذ به، وهناك صور مشرقة تدلل على الوعي السياسي لدى المرأة المسلمة في صدر الإسلام:

فها هي أسماء بنت أبي بكر، تجابه الطاغية الحجاج بن يوسف الثقفي بالحق بعد أن جاء مفاخراً بنصره على ولدها عبد الله بن الزبير، وأسماء ذات النطاقين، رضي الله عنها، من أوائل من عمل من أجل الدعوة:

عن أبي نوفل قال... دخل الحجاج بن يوسف الثقفي بعد مقتل عبدالله بن الزبير على أسماء بنت أبي بكر فقال: كيف رأيتني صنعت بعدو الله؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك. أما إن رسول الله ﷺحدثنا أن في ثقيف كذاباً ومبيراً، فأما الكذاب فرأيناه وأما المبير فلا أخالك إلا إياه. قال فقام عنها ولم يراجعها. (رواه مسلم).

وهذه حفصة رضي الله عنها، تخشى اختلاف المسلمين بعد استشهاد والدها فتنبه أخاها عبد الله إلى أن أباها لم يستخلف أحداً بعده:

عن ابن عمر قال: دخلت على حفصة فقالت: أعلمت أن أباك غير مستخلف؟ قال: قلت: ما كانت ليفعل. قالت: إنه فاعل. قال: فحلفت أني أكلمه في ذلك. فسكتُّ، حتى غدوت، ولم أكلمه. قال: فكنت كأنما أحمل بيميني جبلاً، حتى رجعت فدخلت عليه، فسألني عن حال الناس. وأنا أخبره. قال: ثم قلت له: إني سمعت الناس يقولون مقالة،

فآليت أن أقولها لك، زعموا أنك غير مستخلف، وإنه لو كان لك راعي إبل أو راعي غنم ثم جاءك وتركها رأيت أنْ قد ضيّع، فرعاية الناس أشد. قال: فوافقه قولي، وضع رأسه ساعة ثم رفعه إليّ، فقال: إن الله عز وجل يحفظ دينه وإني لئن لا أستخلف فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف، وإن أستخلف فإن أبا بكر قد استخلف. قال: فوالله ما هو إلا أن ذكر رسول الله ﷺ وأبا بكر، فعلمت أنه لم يكن ليعدل برسول الله ﷺ أحداً وأنه غير مستخلف. (رواه مسلم)

وها هو عبدالله بن عمر يستشير شقيقته حفصة، أي المواقف يقف أثناء التحكيم بين علي ومعاوية؟ فتشير عليه بالخروج، وتعلل له السبب:

عن ابن عمر قال: دخلت على حفصة ونسواتها تنطف. قلت: قد كان من أمر الناس ما ترين، فلم يُجعل لي من الأمر شيء، فقالت: الحَقْ فإنهم ينتظرونك، وأخشى أن يكون في احتباسك عنهم فرقة. فلم تدعه حتى ذهب.

- **العلاقة بين الرجل والمرأة في الإسلام**

يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢١].

من فطرة الله، عز وجل، التي فطر الناس عليها هي ميل الذكر للأنثى ورغبته في صحبتها، وميل الأنثى للذكر ورغبتها في صحبته، وجعل الله بينهما رباطاً مقدساً، وفي صحبة كل منهما للآخر سكينة، وجعل بينهما مودة ورحمة. لكن هذه السكينة لا تأتي من خلال العلاقات العابرة التي أباحتها المذاهب الفلسفية كما مر بنا، أو من خلال الدعوة المبطنة الإباحية التي دعا إليها فرويد وتحليلاته، إنما تأتي عن طريق علاقة دائمة سوية، حددها الشرع، وأعطاها قدسية، وقوت من أواصرها الحياة المشتركة بين الطرفين، وخففت من مصاعبها الألفة والمحبة والرحمة التي منَّ الله بها على عباده.

إنّ إنشاء الأسرة مسؤولية تقع على عاتق الزوجين معاً، ولكي تستقيم حياة الأسرة، لا بد من توزيع المسؤوليات بين الزوجين، كلٌ بما يتناسب والدور الذي خلق من أجله، الرجل يتحمل مسؤولية الإنفاق وحماية الأسرة، والمرأة من واجباتها تدبير شؤون المنزل ورعاية الأطفال. ومع وجود المودة والرحمة لابد من مد جسور التعاون بين المرأة وزوجها، فالقانون الذي يحكم الأسرة ليس قانوناً جامداً صارماً بمعزل عن العواطف، إنه قانون مرن دوره تنظيم المهام الملقاة على عاتق أفراد الأسرة، وإن المشاعر الإنسانية الراقية أعطته فضاءً واسعاً، يزيد من ترابط الأسرة وتلاحمها.

- **دور الرجل**

قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾ [النساء: ٤/ ٣٤].

ورد في تفسير القرطبي (قال ابن عباس: الدرجة في قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ﴾ إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة والتوسع للنساء في المال والخلق، أي: إن الأفضل ينبغي أن يتحامل على نفسه). إذ الفضل في الرعاية الحانية، والشرف في تحمل المسؤولية، وفي حال تقصيره في تحمل أعباء مسؤولياته فلا فضل له. ومن ثمَّ فإن تكليف الرجل بالقوامة ليس تشريفاً وتفضيلاً، بقدر ماهو تنظيم لشؤون الأسرة، فلابد لكل جماعة من قائد قادر على اتخاذ القرار، عند اختلاف الآراء، وفي الأسرة هو سند يركن إليه أفرا د الأسرة. وكما ميز الخالق المرأة بفيض العاطفة وبالحنان الدافق الذي يتناسب ودورها في الحياة، إلا أن هذه العواطف الجياشة تجعلها في كثير من الأحيان غير قادرة على سماع نداء العقل، وبالمقابل ميز الرجل بقدرة أكبر على السيطرة على عواطفه واتباع مايمليه عليه العقل، فأصبح الأقدر على القوامة. وعندما نقول: قوامة أو قيادة في الأسرة، فإنها لن تكون استبداديّة كما يعتقد ويتصرف

الكثيرون، بل يجب أن تكون الشورى سابقة لأي قرار في الدين الإسلامي، وتكون الشورى في الأسرة المسلمة أولى في ظل المحبة والمودة.

ومهمة الرجل هي العمل والإنفاق على الأسرة، ثم يأتي دور المرأة بحفظ مال زوجها بإنفاقها على شؤون المنزل دون إسراف.

وفي حال ضيق حال الزوج، أو عجزه بسبب مرض أو سواه، فإعانة المرأة الميسورة أو القادرة على العمل زوجها، مما يشجع عليه الإسلام، بما فيه من تجسيد للتعاون والمحبة والألفة بين أفراد الأسرة الواحدة، وفي حديث عن رسول الله ﷺ.. عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: تصدقن يامعشر النساء ولو من حليكن. قالت: فرجعت إلى عبد الله فقلت: إنك رجل خفيف ذات اليد وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة، فائته فاسأله فإن كان ذلك يجزي عني وإلا صرفتها إلى غيركم. قالت: فقال لي عبد الله: بل ائتيه أنت، قالت: فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتي حاجتها... فقال رسول الله ﷺ: لهما أجران أجر القرابة وأجر الصدقة. (متفق عليه).

- **دور المرأة الأول: حضانة أطفالها وتربيتهم**

عندما تحدث القرآن الكريم عن المرأة أكثر ما ذكر، ذكر المرأة الأم، لعظيم دورها وأهميته، وإن كان دور الرجل في التصنيع والبناء والذود عن الحياض، فإن دور المرأة هي صناعة هذا الرجل، بكل مايحمل من صفات. ويلفت القرآن الكريم النظر إلى عظم المشقة التي تتعرض لها الأم في أثناء الحمل والولادة، فيوصي بها أبناءها خيراً، يقول تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ١٥]. وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٤].

وفي السنة الشريفة، عن أبي هريره رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحبتي؟ قال: "أمك". قال: ثم من؟ قال: "ثم أمك" قال: ثم من؟ قال: "ثم أمك" قال: ثم من؟ قال: "ثم أبوك".

تبدأ تربية الأبناء منذ اختيار الأم، فإن كانت الأم صالحة صلح أبناؤها، وإن كانت جاهلة لابد أن تنقل تلك الآفة إلى أبنائها، لذلك نبه القرآن الكريم إلى أهمية دور الأم وحسن

اختيارها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢١]. فمن تتحلى بالخلق الإسلامي وبالإيمان لابد أن تنقل لأبنائها ذلك الخلق، وكذلك بين الرسول الكريم أهمية اختيار الأم، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: "تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك". (متفق عليه).

فذات الدين هي المرأة التقية التي تراعي حقوق الله في كل شيء.

ومن الآثار: "إياكم وخضراء الدمن! قالوا: وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في منبت السوء!".

ومنها: "تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس". فالزواج ليس قضاء وطر، وإنما إنشاء أسرة وتربية أبناء، وبناء مجتمع.

- **التعاون بين الزوجين من أجل تربية الأبناء**

أظهرت بعض الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم دور الزوج ومسؤوليته في تربية أبنائه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال:... قال رسول الله ﷺ: «إن لولدك عليك حقاً».

عن أبي قتادة الأنصاري أن رسول الله ﷺ، كان يصلي وهو حامل أمامة بنت زينب بنت رسول الله ﷺ ولأبي العاص بن ربيعة بن عبد شمس، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها.

والطفل بحاجة إلى الحنان في صغره، وبحاجة إلى الإحساس بحب والده ورعايته له، كما أنه بحاجة إلى توجيه والده، وأن يكون له قدوة، عن عمر بن أبي سَلَمة قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصَّحْفة، فقال لي رسول الله ﷺ: "يا غلام سَمّ الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك". فما زالت تلك طِعمتي بعد.

- **رعاية المرأة لشؤون البيت**

عن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: "...ألا كلكم راع ومسؤول عن رعيته... والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم".

وهذا لا يعني أن العمل المنزلي هو مسؤولية المرأة وحدها، بل إن كان الرجل موسراً وكانت الزوجة بحاجة إلى من يعينها، فعليه أن يعين لها خادماً يعينها، وكان رسول الله، ﷺ، يعين أهله في تدبير شؤون البيت، وفي

رواية عن عائشة، رضي الله عنها، سئلت: ما كان رسول الله ﷺ، يعمل في بيته؟ قالت: كان بشراً من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته ويخدم نفسه. (وفي رواية أخرى: كان يخيط ثوبه ويخصف نعله ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم).

وكان كثير من الصحابة يقتدي برسول الله ﷺ ويشاركون زوجاتهم في تدبير شؤون المنزل، فها هو علي رضي الله عنه يعين فاطمة في نشل الماء من البئر، كما ورد عنه.

مواقف من ردود فعل الصحابة
من رفع مكانة المرأة في المجتمع الإسلامي

الخليفه عمر بن الخطاب كان من الرجال الأشداء في الجاهلية، وكان من الذين وأدوا بناتهم، وكان كثير الغيرة على النساء، شديداً عليهن في الجاهلية، وعندما دخل الإسلام، وآمن كما يكون أحسن الإيمان، اتبع تعاليم الدين الجديد في إعطاء المرأة حقوقها، فقد كان يكره خروج زوجته لصلاة الفجر والعشاء في المسجد، لكنه لم يكن يمنعها حتى لا يخالف قول رسول الله ﷺ، "لا تمنعو إماء الله مساجد الله".

وفي حديث ابن عمر، قال: "كانت امرأة لعمر تشهد صلاة الصبح والعشاء في الجماعة في المسجد فقيل لها: لم

تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟ قالت: وما يمنعه أن ينهاني؟ قال: يمنعه قول رسول الله ﷺ: "لاتمنعوا إماء الله مساجد الله".

ومن ذلك أن عمر بن الخطاب قال: إنه دخل على حفصة، فقال لها: يابنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ، حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه. فقلت: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله ﷺ... قال: ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة، لقرابتي منها، فكلمتها، فقالت أم سلمة: عجباً لك يا ابن الخطاب! دخلت في كل شيء حتى تبغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ، وأزواجه فأخذتني والله أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد، فخرجت من عندها...

عن عمر بن الخطاب قال: ...والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمراً حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم. (وفي روايه أخرى: كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئاً، فلما جاء الإسلام وذكرهن الله رأينا لهن بذلك علينا حقاً من غير أن ندخلهن في أمورنا) فبينا أنا في أمر أتأمره إذ قالت امرأتي: لو صنعت كذا وكذا؟ قال: فقلت لها: ما لك ولما ها هنا؟ فيما تكلفك في أمر أريده؟ فقالت لي: عجباً

لك يا بن الخطاب ما تريد أن تراجع أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ، حتى يظل يومه غضبان...!

من ذلك نرى أن هناك فارقاً كبيراً بين نظرة الإسلام للمرأة ودورها في المجتمع وبين نظرة المجتمعات الإسلامية المعاصرة للمرأة. ونصل إلى نتيجة هي أن الأهواء الشخصية والتي سرعان ما تتحول إلى أعراف وتقاليد، هي دوماً الغالبة، بل ويؤول الدين ليتناسب مع تلك الأهواء.

ومع ذلك هناك بعض المآخذ التي يرى البعض أن الإسلام قد ظلم المرأة من خلالها، فهل ظلمها بالفعل أم أن في ذلك لبساً ساهم به الفهم الخاطئ للإسلام؟..

الانتقادات الموجهة للإسلام

- **الحجاب**

استهل القرن الواحد والعشرون بحرب عنيفة على أفغانستان، ومن أحد الأهداف المعلنة لهذه الحرب المدمرة كان تحرير المرأة من وضعها ومن حجابها، ومن ثم أثيرت قضية الحجاب في معظم البقاع، ومنعت فرنسة رعاياها المسلمات من ارتداء الحجاب، وتبعتها دول أخرى. وبغض النظر عن مصداقية تلك الحرب وإنسانيتها، فإن قضية الحجاب لها جذور سابقة، إذ يرى الكثيرون أن تردي وضع المرأة المسلمة مرده إلى الحجاب، ووجدوا فيه قيداً يعيق المرأة عن أداء دورها في المجتمع، ويجعلها حبيسة البيت، محرومة من متع الحياة، ولو أردنا أن نكون موضوعيين، فإن

وضع المرأة المسلمة بشكل عام هو وضع متخلف، لكن هل مرده فعلاً إلى الحجاب؟ وكيف يكون اللباس مصدراً للتخلف أو التطور؟!...

إذن، ما المقصد الشرعي للحجاب، ولماذا فرض؟

لقد خلق الله، عز وجل، الذكر والأنثى، وجعل بينهما الكثير من الصفات والمعاني المشتركة، إذ حبا الله، عز وجل، الرجل والمرأة عقلاً مفكراً مدبراً، قادراً على الإبداع في جميع المجالات الثقافية والعلمية، وتساوى الرجل والمرأة بإمكانيات المشاركة والتفاعل مع قضايا المجتمع. وخلق الله في كل منهما صفات متممة للجنس الآخر، ومكملة له، وبث في كل منهما جاذباً يحرك غرائز الجنس الآخر، فجعل في كل موضع من جسد المرأة جمالاً وفتنة وإثارة خاصة، وتأثيراً يتفاوت من شخص لآخر، فمنهم من يفتن بشعر المرأة، وآخرون ربما بلون بشرتها، وربما بموضع آخر من جسدها أكثر من سواه، وهذه أبحاث مجالها علم النفس وعلم الجنس. أما المرأة فإن أكثر ما يفتنها بالرجل ملامح قوته بشكل عام دون تفاصيل، ودون أن يكون عريه موضع إثارة حقة، فنرى أن تجمل الرجل يكون بلباسه وخصوصاً لباس الحرب أو الصيد والذي بالغالب يغطي

كامل جسده ويضفي عليه الكثير من مظاهر القوة والصلابة، بينما تزداد فتنة المرأة بالمزيد من عريها وإظهار مفاتنها، وهذه الفتنة ضرورية من أجل إشباع الغريزة الجنسية بين الجنسين، وقد قيدها الشرع ونظمها ضمن ضوابط تحفظ للمرأة كرامتها وحقوقها. ولكي يبقى لجمال المرأة وفتنتها خصوصيتها، ويبعدها عن الابتذال، كان الحجاب؛ حتى تقوم المرأة بدورها في المجتمع، وتشارك بنشاطاته العلمية والفكرية والاجتماعية، دون الخلط بين فتنتها وإمكاناتها الخلاقة، ولكي لا ينظر إليها جسداً ومصدراً للإثارة يستمتع به الرجل متجاهلاً قدراتها العقلية.

إذن، المقصد الشرعي الأول للحجاب هو الحفاظ على كرامة المرأة، وتوجيه الأنظار إليها بوصفها إنساناً يمتلك من الملكات الذهنية، والإمكانات الخلاقة التي تجعل منها نداً كاملاً للرجل في كافة المجالات.

والمقصد الثاني، هو درء الفتنة عن المجتمع، فإن ظهور المفاتن على قارعة الطريق، يشكل إثارة دائمة لايعرف عواقبها، فليس جميع الرجال محصنين، وليس كل محصن ذا أخلاق، وإحصائيات الاغتصاب في الدول الغربية وسواها من المجتمعات التي لاحدود لسفور المرأة بها، يبرهن عن خطورة عدم تقيد المرأة باللباس الساتر لمفاتنها.

أما الأمر الآخر والذي يمس المرأة بشكل مباشر، وهو رؤية الرجل مفاتن النساء الغريبات كما يرى مفاتن زوجته، عندئذ لابد أن يقارن بين زوجته وسواها ممن رأى، وغالباً ما يكون الطرف الخاسر جراء تلك المقارنة الزوجة بحكم الإلف والعادة، ولا بد أن يؤثر ذلك في استقرار الأسرة، وربما يحدث شرخاً بين الزوجين.

ولنعد إلى المدافعين عن حقوق المرأة دولاً ومنظمات وأفراداً، إن المرأة تستحق أن تقام الحروب من أجل استرجاع حقوقها، والدفاع عن كرامتها وحقها في الحياة كإنسانة تماماً كالرجل، فهي نصف المجتمع، وهي القائمة على تربية النصف الآخر، فإن صلحت صلح المجتمع، وإن بقيت ترزح تحت نير الظلم أو الجهل فسد حال المجتمع، والحروب ليست دائماً هي الطريق الأمثل لاسترجاع الحقوق، أو التخلص من الجهل. وما نراه الآن هو أن المرأة مازالت مستغَلة حتى من قبل دول تدعي الحفاظ على مصالح العباد أينما كانوا، ودول تعتبر منارة للثقافة، والحضارة المعاصرة، تدعي الحرية والديمقراطية، وتمنع حرية ارتداء الحجاب للفتيات المسلمات من رعاياها، وتترك شبكات الرقيق الأبيض تنصب شراكها في جميع أنحاء العالم، فيقع فيها من النساء ذوات كفايات علمية تحت وطأة حاجتهن

الماسة للعمل، يستجبن لإعلانات مضللة تلقي بهن في مهاوي الرذيلة، كل ذلك يحدث أمام ناظر المنظمات الدولية، والدول الكبرى دون أن يحرك أحد ساكناً، فأين الدفاع عن حقوق المرأة؟!...

- **الميراث**

يتهم الدين الإسلامي أنه لايساوي بين الذكر والأنثى في الميراث، والشاهد على ذلك قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ٤/ ١١]، إن انتقاء هذه الآية الكريمة دون محاولة معرفة أحكام الميراث، والحكمة من كل حكم، يؤدي إلى فهم خاطئ. إن هذا الحكم خاص بالأبناء فقط، أما سوى ذلك ففي الغالب يكون نصيب الذكور والإناث واحد. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ إذن في حال كان الورثة أماً وأباً وأبناء، فلكل من أبويه السدس دون التمييز بين ذكورة الأب وأنوثة الأم.

وكذلك إذا ترك الميت عدداً من الإخوة لأم وعدداً من الأخوات لأم، يرث الإخوة الثلث مشاركة وترث الأخوات الثلث مشاركة، دون التمييز بين الذكور والإناث، طبقاً لقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾.

وهناك حالات ترث الأنثى أكثر من الذكر، مثال ذلك من توفيت عن زوج وابنة، فإن الزوج يرث الربع بينما ترث ابنته النصف، أي ضعف الذكر الذي هو والدها .

وهذه الأحكام، لم يفرضها الشارع جزافاً، بل راعى فيها وضع الوارث ونوع العلاقة بينه وبين مورثه.

ففي قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ نجد أنها خاصة بالأبناء إذا اجتمعوا ذكوراً وإناثاً، فإن الذكر مسؤول عن والديه في حال تقدم بهما السن واحتاجا إلى رعاية، وهو مسؤول عن تقديم المهر لزوجته والإنفاق عليها وعلى شقيقته مادامت لم تتزوج، أما شقيقته فلا تتحمل شيئاً من تلك المسؤوليات، لذلك كان نصيبها نصف نصيبه. أما إذا ترك المتوفى أخاً وأختاً لأمه، وليس ثمة من هو أقرب منهما كالابن والأخ الشقيق، فإنهما يتساويان في الميراث. ذلك أن أياً منها لايتعرض لتحمل مسؤولية أخيهما المتوفي لو كان حياً.

كذلك في حال ترك المتوفَّى ولدين، فإنه يتحمل مسؤولية الإنفاق عليهما لو كان حياً واحتاجا لإعانته، ففي حال وفاته يستوي الأب والأم في نصيبهما من الميراث.

إذن حكم الآية ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ ليست قانوناً تعسفياً تظلم المرأة بمقتضاه، وليست قاعدة مطلقة تطبق في جميع الحالات التي يشترك بها الذكور والإناث، بل هي كما رأينا تعود إلى نوع العلاقة بين الوارث والمورث، ومدى التزام كل منهما بالآخر.

لكننا الآن نعيش في زمن تعمل به المرأة كالرجل تماماً، وهي قادرة على الإنفاق على عائلتها، وأصبح من المألوف أن نجد الابنة تلتزم بالإنفاق على والديها أو مساعدة شقيقها في الإنفاق، والزوجة تنفق على أبنائها، وتخفف العبء عن زوجها، فهل يعتبر هذا مبرراً لتغيير أحكام الميراث؟ وهل تلزم المرأة في حال قدرتها على الإنفاق بتحمل مسؤولية ذويها؟.. في هذه الحالات، لا يلزم الشرع المرأة بالإنفاق، إذ إن أخلاقها هي التي تملي عليها المشاركة بمسؤولية الإنفاق، وهذه المشاركة لايجب الاستهانة بها، فإن نجاح الحياة الأسرية، والسعادة التي يمكن أن تتحقق لجميع أفراد الأسرة، تعود إلى هذا التعاون بين أفراد الأسرة الواحدة، وقد جاء في السنة الشريفة عن زينب زوجة عبد الله بن مسعود أنها سمعت رسول الله ﷺ، يقول للنساء: "تصدقن يامعشر النساء ولو من حليكن.. " قالت: فرجعت إلى عبد الله بن

مسعود، فقلت له: إنك رجل خفيف ذات اليد، وإن رسول الله قد أمرنا بالصدقة، فائته فاسأله، فإن كان ذلك يجزي عني، وإلا غيركم. فقال عبد الله: بل ائتيه أنت، فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ، حاجتي حاجتها. وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة. فخرج علينا بلال. فقلنا له: ائت رسول الله ﷺ، فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك أتجزئ الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما؟ ولا تخبره من نحن. فدخل بلال على الرسول الله ﷺ، فسأله.. فقال له رسول الله: من هما؟ قال: امرأة من الأنصار وزينب. فقال رسول الله ﷺ: "أي الزيانب هي"؟ قال: امرأة عبد الله، فقال رسول الله ﷺ: " لهما أجران ؛ أجر القرابة وأجر الصدقة". ومع ذلك فإن هذا لا يعفي الرجل من واجب الإنفاق، ولا من مسؤوليته اتجاه ابنته أو شقيقته أو زوجته، ومقدرتها على الإنفاق لايغير من قانون الميراث شيئاً. فلو أُلزمت المرأة في قدرتها على العمل والكسب على الإنفاق، لأصبحت ملزمة بالعمل، وإلزامها بالعمل والكسب سيعرضها للكثير من المتاعب التي في الغالب تمس كرامتها، ولنا في المجتمعات التي ألزمت المرأة فيها بالعمل أمثلة.

• تعدد الزوجات

يوجه الكثير من الانتقادات إلى الإسلام لإباحته تعدد الزوجات ـ رغم فرضه قيوداً على هذه الإباحة ـ بل وكثيراً ما يتهم الإسلام بعدائه للمرأة، وبعدم عدالته وبتحيزه للرجل بسبب هذه الإباحة. ولو أننا ابتعدنا عن المثاليات، ونزلنا إلى أرض الواقع، لوجدنا أن التعدد موجود وفي جميع المجتمعات دون استثناء، ولوجدنا أن بعض المجتمعات الإسلامية هي الأقل على مستوى العالم بنسبة التعدد، ففي المجتمعات التي لا تسمح قوانينها بالتعدد الشرعي، تسمح بالعلاقات غير الشرعية والعابرة، وهذه العلاقات غير ملزمة للرجل، ومن ثَمَّ فمن السهل إقامتها، ومن السهل التخلص منها والانتقال لعلاقات جديدة، بل لايوجد قانون بتلك المجتمعات يقيد المرأة أو الرجل بعدد العلاقات التي يسمح لهما بإقامتها، فربما تتعدى الأربع علاقات، أما الإسلام فإنه حدد عدد الزوجات بأربع، وألزم الزوج بجميع المسؤوليات المترتبة عليه اتجاه كل زوجة. إذ بعد الأربع زوجات يكون استنفد جميع مالديه من مبررات للتعدد، ولن يكون قادراً بعد ذلك على رعايتهن والعدل بينهن، بالإضافة إلى أن الإسلام لم يأمر بالتعدد، ولم يوجد شيئاً لا وجود له، وإنما وضع قوانين لحماية المجتمع والحفاظ على كرامة المرأة وحقوقها.

قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٤/ ٣]. ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ أي ماصلح، ومافيه خيركم وصلاحكم، والصلاح والخير لايأتي للرجل وحده بمعزل عن زوجته الأولى والثانية وعن أبنائه، فالعلاقه بين أفراد العائلة الواحدة علاقة متشابكة، ولكي يتحقق الصلاح، قيد الشارع التعدد بشروط، وهي:

أولاً - العدل

قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٤/ ٣]، العدل من أهم الشروط التي اشترطها الله، عز وجل، لإباحة التعدد، ومن لايقدر عليه فليكتفِ بواحدة. وفي الحديث، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "إذا كان عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط". (رواه الترمذي)

ليس بالأمر اليسير تحقيق العدل بين الزوجات، إذ غالباً ما يكون هناك ميل لزوجة أكثر من زوجة، ربما لتميزها بشباب أو جمال أو صلاح زائد أو حكمة ورجاحة عقل، فلا يستطيع أن يعدل بينهن بالعاطفة، فيجب عليه أن يعدل بينهن بالمسكن، والملبس، والنفقة، كذلك يجب أن يساوي بينهن بالحديث والمباسطة والمبيت، والعدل بين أبنائهن بالاهتمام

والرعاية بالتساوي دون تمييز، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سألت أمي أبي بعض الموهبة لي من ماله، ثم بدا له فوهبها لي، فقالت: لا أرضى حتى تشهد النبي ﷺ. فأخذ بيدي وأنا غلام، فأتى بي النبي ﷺ فقال: إن أمه بنت رواحة سألتني بعض الموهبة لهذا. قال: "ألك ولد سواه"؟ قلت: نعم، قال: "لا تشهدني على جور". فيجب توخي الحذر في المعاملة حتى في حال ميل القلب لزوجة أكثر من زوجة.

عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ، كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول: "اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك".

ثانياً - القدرة على النفقة

يجب أن يكون الزوج قادراً على الإنفاق على زوجاته وأبنائهن، بأن يفرد كل زوجة بمنزل مستقل، وأن يوفر لها احتياجاتها واحتياجات أبنائها. عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: "كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول". (رواه أبو داوود).

وقال رسول الله ﷺ: "كلكم راع ومسؤول عن رعيته... والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم"(متفق عليه).

- **الأسباب الداعية للتعدد**

الأصل في الزواج ليس التعدد، بل الزواج الأحادي، أيْ زوج وزوجة تجمعهما حياة مشتركة أبدية، يسودها الحب والتفاهم، ويحاول كل منهما إسعاد الآخر. لكن في بعض الأحيان يحدث أن تهتز هذه الصورة المثالية، وربما يحدث بها نقص يستدعي التعدد، مثال ذلك:

- عقم الزوجة: قد يتحمل الزوجان عدم الإنجاب، وتستمر الحياة الزوجية، رغم ذلك، خصوصاً إذا كانا متحابين، وقد يكونا متحابين، لكن رغبة الزوج في الأبناء شديدة، فمن حقه أن يتزوج بأخرى، وتبقى الزوجة الأولى على ذمته بإرادتها.
- قد لا يجد الزوج الراحة والانسجام مع زوجته، وهذا يكون بسبب التفاوت الثقافي، أو سوء الخلق أو سواهما من الأسباب الكثيرة المختلفة، فإن كانت الزوجة أماً لأبنائه وطلاقها فيه ضرر لها ولأبنائه، من الأفضل أن يبقيها على ذمته ويتزوج بأخرى.
- أسباب صحية: كمرض الزوجة مرضاً مزمناً؛ سواء مرضاً نفسياً أو بدنياً.

- وهناك دواعٍ إنسانية كأن يتزوج الرجل بأخرى توفي عنها زوجها، وترك في حجرها أيتاماً يحتاجون لرعاية، أو امرأة وحيدةً تحتاج لمن يرعاها.
- وقد يتزوج الرجل لكثرة أسفاره وطولها، وعدم تمكن زوجته الأولى من مرافقته، إما بسبب رعاية الأبناء، أو لارتباطها بعمل، أو أن كثرة الأسفار لا تلائمها.
- التعدد من أجل مزيد من المتعة: هناك من الرجال من لا يكتفي بزوجة واحدة، وبدلاً من ارتكاب الفاحشة والزنا، حلل له التعدد.

- **ضوابط تعدد الزوجات**

وضع الإسلام عدداً من الضوابط تحكم التعدد منها:

عدم الزيادة على أربع زوجات، قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ﴾ [النساء: ٤/٣]. واشترط العدل بين النساء، والقدرة على الإنفاق، وفي الحديث الشريف، عن النبي ﷺ: "يكفي المرء إثماً أن يضيع من يعول".

ربما هناك من يسأل هل يجب على الزوجة الخضوع لرغبات زوجها، وقبول التعدد؟

ذهب بعض الأئمة إلى أنه من حق المرأة أن تشترط على الزوج في عقد الزواج عدم الزواج بأخرى، وفي حال مخالفته لهذا الشرط يحق لها طلب الطلاق. ويؤخذ عن بعض الفقهاء تقرير حق المرأة وأهلها في الاعتراض على التعدد، وطلب الطلاق إذا كانت شديدة التضرر من التعدد، ولنا في ذلك أسوة في رسول الله ﷺ عندما منع علياً من الزواج بابنة أبي جهل، "عن المسور بن مخرمة قال: إن علياً خطب بنت أبي جهل فسمعت بذلك فاطمة، فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح بنت أبي جهل. فقام رسول الله ﷺ، فسمعته حين تشهد يقول: "أما بعد... وإن فاطمة بضعة مني وإني أكره ما يسوءها".

وفي رواية ثانية قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول وهو على المنبر: "إن بني هاشم بن المغيرة أستاذنوا في أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن إلا أن يريد ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم". وفي روايه ثالثة: "وأنا أتخوف أن تفتن في دينها... وإني لست أحرّم حلالاً ولا أحل حراماً ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله أبداً". فترك علي الخطبة. (متفق عليه)

- **لماذا لا يحق للمرأة التعدد كما يحق للرجل؟**

إن طبيعة المرأة وتركيبتها لا تتناسب وتعدد الأزواج، لأن في ذلك اختلاطاً بالأنساب، فالمرأة هي من يحمل في أحشائها الجنين، ويجب أن يُعرف والده ونسبه، ثم إن الفطرة السليمة للمرأة تمنعها من أن يكون لها أكثر من زوج، فعندما خلق الله، عز وجل، الذكر والأنثى جبل كلاً منهما على فطرة تتناسب والدور الذي خلق من أجله، فمن طبيعة المرأة ألاَّ تتسع حياتها لأكثر من رجل، وفي حال تضررها جراء اقترانها بزوجها، وعدم قدرتها على الاستمرار معه بسلام، بإمكانها طلب الطلاق. بل بإمكانها الانفصال عن زوجها في حال رغبت في ذلك دون أن يكون هناك سبب غير أنها لا تشعر بعاطفة اتجاهه، فعن ابن عباس قال: جاءت امرأة ثابت بن قيس إلى النبي، ﷺ، فقالت: يارسول الله: ما أنقم على ثابت في دين ولا خلق إلا أني أخاف الكفر. فقال رسول الله ﷺ: "فتردين عليه حديقته؟" فقالت: نعم. فردت عليه وأمره ففارقها. (رواه البخاري).

وعن ابن عباس: أن زوج بريرة كان عبداً يقال له مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي ﷺ للعباس: "يا عباس ألا تعجب من حب مغيث بريرة ومن بغض بريرة مغيثاً؟ " فقال النبي ﷺ:

"لو راجعته؟" قالت: يا رسول الله، تأمرني؟ قال: "إنما أنا أشفع"، قالت: فلا حاجة لي فيه. (رواه البخاري).

فالإسلام لم يظلم المرأة، سمح لها بالانفصال عن زوجها، رغم كونه يتمتع بالدين والخلق، ورغم كونه يحسن معاملتها، فرغم أهمية هذه الصفات إلا أنها غيرُ كافية، إن لم يكن يربط بين الاثنين رباط الحب والمودة.

• كيف تنظر المرأة للرجل، وكيف ينظر الرجل للمرأة؟

تبدأ الفتاة برسم حياتها متأثره بحكايات الجدة.. تبحر بخيالها إلى عالم سحري.. تنتظره فارساً وسيماً يأتيها على حصانه الأبيض يخطفها، لتعيش معه حياة ملؤها السعادة والهناء.. يخلص لها وتخلص له، ويزين حياتهما الأطفال، أما الزوجه الثانية، فهي غير واردة إطلاقاً، إلا في حال وفاة الأولى، وعندها لابد أن تكون شريرة، تسيء معاملة الأبناء، وتسبب الأذى والضرر للزوج، رغم وفاة الأولى وعدم وجود ضرة تغار منها.

إنها صورة رومانسية، بعيدة عن الواقع، فالحياه ليست بهذه السطحية، وما دور الحب إلا ليساعد على العمل،

وعلى تخطي مصاعب الحياة. ومع ذلك فإن المرأة تملك في داخلها شيئاً من هذه الرومانسية، فهي تحلم بزوج تخلص له، وبالمقابل تتوقع منه الإخلاص لها وحدها. لكن الواقع يصدمها، فالرجل الذي تحلم فيه غير موجود تقريباً، وكما هي تحلم برجل واحد تخلص له ويخلص لها في حياتها، هو يحلم بعدد من النساء الجميلات الفاتنات يتحلقن حوله كلٌّ منهن ليس لها غاية في هذه الدنيا سوى إرضائه، هذا الحلم ليس ببساطة حلم المرأة، إنه يعني أكثر من مجرد رجل ونساء، إنه يعني السلطة أيضاً، حلم يداعب خيال الرجل الشرقي كما يداعب خيال الرجل الغربي، الذي لا تعترف ثقافته المسيحية بالمتعة، فيتجه بخياله إلى الشرق وما ينسج حوله من حكايات السلاطين المحاطين بأعداد وفيرة من الجواري الفاتنات، نرى تلك الأحلام مصورة بلوحات لفنانين غربيين أمثال هنري ماتيس الذي عاش في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حين كانت الحركات النسوية المطالبة بالمساواة بأوجها، كان هو يرسم المحظيات شبه العاريات، معطياً صورة من خياله غير حقيقية سادت وانتشرت، بانتشار تلك اللوحات، غير مكترثين بالمرأة التي بدأت ترسم ملامح شخصيتها الحقيقية نافضة غبار الجهل

والظلم. وها هو ذا فكتور هوغو يجسد حلمه بقصيدة يخاطب بها عشيقة وهمية تأبى أن تتقاسمه مع غيرها من النساء:

"آه! أيتها الغيورة بين الغيورات!
الرائعة الجمال بفؤادك القاسي!
اغفري لنسائي الأخريات...
ألست ملكاً لك؟ فما همك
حين تطوقك ذراعاي
أن تخمد مئة امرأة قد أمضَّهن الشوق
عبثاً على بابي
تأوهاتهن في تنهيدات ملتهبة!" (١)

إنه ليس مجرد حلم بعدد من النساء يحطن به، بل هو حلم بسلطان وقوة، فكلما ازداد عدد النساء حوله ازدادت سطوته وقوي سلطانه، وعظمت متعته. فأين حلم المرأة من حلم الرجل.

---

(١) فاطمة المرنيسي، هل أنتم محصنون ضد الحريم؟، ص١١٨، الناشر نشر الفنك، المركز الثقافي العربي.

إن المرأة المغرقة بالرومانسية، والتي تسكن بداخلها سندريلا أو سنووايت، لا تكون حياتها إلا من أجل الرجل وبه، تكون قد دخلت في نفق مظلم يحجبها عن رؤية دورها الحقيقي بوصفها مستخلفة في الأرض، هذه المرأة لابد أن يكون الفشل بانتظارها، ولكي تتحرر، يجب أن تشعر أن لها دوراً بالحياة، وأن لها رسالة يجب أن تسعى لتحقيقها، أما الرجل، فهو رفيق درب، بينها وبينه أهداف مشتركة، لكل منهما حقوق وواجبات تجاه الآخر، وجعل الله بينهما مودة ورحمة تعينهما على صعاب الحياة، وفي حال تقصيره، تستطيع الاستمرار، فوجود هدف بحياة الإنسان يجعل للحياة معنى ويشعره بالسعادة.

- **بيت النبوة والأسوة الحسنة**

ينتقد أناسٌ زواج الرسول، ﷺ، بعدد النساء بعد وفاة السيدة خديجة، رضي الله عنها، هل كان زواجه ﷺ، من أجل أهواء شخصية؟.. أم هناك حكمة تكمن وراء تلك الزيجات؟.. لنبدأ بزوجته الأولى والتي تزوجها ﷺ، قبل نزول الرسالة.

- **زواجه من السيدة خديجة**

زوجته الأولى هي خديجة بنت خويلد، من أعرق نساء قريش نسباً، نشأت في بيت يملؤه النبل والشرف، فغدت

امرأة جليلة حكيمة، اشتهرت بالعقل والحزم، والأدب، فكانت لها مكانتها المرموقة في مجتمعها، مما جعلها محطّ أنظار كبار رجال القوم. تزوجت مرتين قبل الرسول الكريم، توفي عنها زوجها الأول تاركاً لها ولدين، تزوجت بعده بآخر لم تلبث أن انفصلت عنه بالطلاق، بعد ذلك آثرت تربية أبنائها رافضة الكثير من أشراف قريش الذين تقدموا لخطبتها.
كانت السيدة خديجة ذات مال وتجارة، تستأجر من الرجال من ينوب عنها بأعمال التجارة والسفر، ولما بلغها عن أمانة وصدق محمد ﷺ، أرسلت إليه ليخرج بتجارتها إلى الشام، وعن قرب تعرفت على شخصيته وعلى أخلاقه وأعجبت بها، وشعرت أنه كفء لها، وجاءت الخطوة الأولى منها، فوافق محمد ﷺ، على الارتباط بها، لما تتمتع به من أخلاق عالية ومهابة، ونسب عريقٍ، ورغم بلوغها الأربعين من العمر إلا أن الجمال لم يكن ينقصها. ورغم فقره لم يكن عالة عليها، بل عمل بتجارتها بأمانة وضاعف من أرباحها، ومع مناقب السيدة خديجة لم يكن فارق السن يعني شيئاً، إن أخلاقها وحكمتها وخبرتها في الحياة هو ما كان يحتاج إليه النبي الكريم خصوصاً في بداية الدعوة الإسلامية، وربما من المهم اللفت إلى أن تلك المرحلة كانت مرحلة إرهاصات تهيّئ لظهور خاتم الأنبياء الذي نبأت به التوراة والإنجيل، وكانت

السيدة خديجة ممن يترقبون ظهور النبي الجديد، وكان بعض من بني أسد قومها ينزعون إلى التوحيد والعودة إلى دين أبيهم إبراهيم، ومنهم ورقة بن نوفل ابن عم خديجة، فمما جاء في السيرة النبوية:

"قال ابن إسحاق: وكانت خديجة بنت خويلد قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وكان ابن عمها، وكان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس، ماذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب، وما كان يرى منه إذ كان الملكان يظلانه، فقال ورقة: لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي يُنتظر، هذا زمانه"(١).

إذن كانت تعلم أن لمحمد ﷺ شأناً، وكانت تمني نفسها بأن يكون لها شرف المساندة والمشاركة في الدعوه لهذا الدين الجديد. وعندما نزل عليه الوحي وهو في غار حراء، وله من العمر أربعون عاماً، عاد إلى خديجة ترجف بوادره، وأخبرها بما حدث، "وقال: قد خشيت على عقلي، فثبتته وقالت: أبشر، كلا والله لا يخزيك الله أبداً، إنك

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، ١/ ٢٠٦، دارالفكر للطباعة والنشر.

لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتعين على نوائب الدهر.. "[١].

فكانت أول من آمن به، وعندما آذاه قومه واشتد البلاء عليه، كانت خديجة تشد من أزره وتدعمه معنوياً ومادياً، فكانت له خير معين. وفي السنة العاشرة من بدء الدعوة اختار الله عز وجل السيدة خديجة، رضي الله عنها، إلى جواره، فحزن الرسول ﷺ حزناً شديداً لفراقها، وقد تتابعت على الرسول الكريم ﷺ، المصائب بعد وفاتها، حتى سمي عام وفاتها عام الحزن.

لم يتزوج الرسول ﷺ في حياة السيدة خديجة، رضي الله عنها، وظل مخلصاً لها بعد وفاتها، حتى إن السيدة عائشة، رضي الله عنها، كانت تغار منها، فعن هشام قال: أخبرني أبي، عن عائشة أنها قالت: ما غرت على امرأة لرسول الله ﷺ، كما غرت على خديجة، لكثرة ذكر رسول الله، ﷺ، إياها وثنائه عليها، وقد أوحي إلى رسول الله، ﷺ، أن يبشرها ببيت لها في الجنة من قصب. (رواه البخاري)

---

(١) الفصول في سيرة الرسول، ابن كثير، تحقيق وتعليق: محمد العيد الخطراوي، محيي الدين مستو، دار التراث، دار ابن كثير، ص ٩٦.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على نساء النبي، ﷺ، إلا على خديجة، وإني لم أدركها. قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة يقول: "أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة". قالت: فأغضبته يوماً، فقلت: خديجة؟ فقال: "إني رزقت حبها". (رواه مسلم)

نرى أن الرسول، ﷺ، كان مخلصاً لزوجته الأولى، محباً لها حتى بعد وفاتها، وكان يكرم صديقاتها من أجل ذكراها. يظهر لنا ذلك أن الرسول ﷺ، لم يكن ممن يعددون الزوجات دون مبرر، رغم أنه كان في مجتمع لا ينكر التعدد، بل قد يجمع الرجل بين عشر زوجات وأكثر. ونجد أن التعدد بدأ بعد أن تلقى الرسالة، وبعد وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها، وكان، ﷺ، في منتصف عقده الرابع، فهل يمكن أن يعزى ذلك لأهواء شخصية؟!..

- **السيدة سودة بنت زمعة**

أول نساء الرسول ﷺ، بعد وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها، كانت السيدة سودة بنت زمعة، والسيدة عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما.

كانت السيدة سودة وزوجها السكران بن عمرو رضي الله عنهما من النفر الثمانية من بني عامر الذين هاجروا فراراً

بدينهم وعقيدتهم إلى الحبشة، وما كادت تنتهي محنة غربتها والعودة إلى أرض الوطن حتى فقدت زوجها، وبدأت تعاني محنة الترمل.

لم تكن السيدة سودة في مقتبل العمر أو حتى في منتصفه، بل كانت أرملة مسنة، ثقيلة الجسم ثبطة، فلم يتزوجها ﷺ، لشباب أو جمال، وإنما تخفيفاً عنها وإيناساً لوحدتها، وربما لم يكن أمامها بعد الترمل إلا العودة إلى أهلها فتؤذى في دينها، فضم النبي لها حماية لها. ولم يخفَ على سودة هذا السبب، وأن زواج الرسول ﷺ، منها ماهو إلا رحمة وجبران خاطر، لكن كان يكفيها أنه رفعها درجات لتصبح في الدنيا أم المؤمنين وفي الآخرة زوجة خير البرية. فقامت على بيت النبي سعيدة، تخدم بناته وتعتني بشؤون النبي ﷺ، ولما دخلت السيدة عائشة بيت النبوة، أفسحت لها المقام الأول في البيت، وحرصت على سعادتها.

وهناك فائدة أخرى ظهرت من هذا النوع من الزواج، فبعد أن وفدت على بيت النبوة نساء أخريات، وشعر ﷺ أن السيدة سودة في وضع يجرح قلبها، أراد أن يجنبها ذلك الوضع، بأن يسرحها، فلما أنبأها بعزمه على الطلاق، تملكها الجزع وقالت له في ضراعة: "أمسكني يا رسول الله،

والله ما بي على الأزواج من حرص، ولكني أرجو أن يبعثني الله يوم القيامة زوجاً لك" (رواه مسلم).

ووهبت سودة ليلتها لعائشة رضي الله عنها، أحب زوجات الرسول إلى قلبه بعد خديجة، وأنزل الله سبحانه وتعالى في ذلك قرآناً، يقول تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ﴾ [النساء: ٤/ ١٢٨].

ففي حال رغب الزوج عن زوجته لأي سبب، وكان وضعها لا يسمح لها بالزواج ثانية، أو لا تجد من يعولها، فإنها تعفيه من واجباته الزوجية تجاهها، وتبقى في كنفه، وفي ذلك رحمة لها وحماية.

إنها دعوة لكل مسلم بأن يتحمل مسؤوليته تجاه المجتمع الذي يعيش فيه، وهذا يجب أن يحسب للإسلام.

- **الحكمة من زواج النبي ﷺ من السيدة عائشة رضي الله عنها**

تزوجها الرسول ﷺ وهي ابنة ست سنوات، وبنى بها وهي ابنة تسع سنوات، صغر سن السيدة عائشة عند زواجها بالإضافه إلى فارق السن يعد في نظر الكثيرين

مأخذاً على الإسلام، وعلى الرسول ﷺ، وإذا قسنا على مجتمعاتنا الحالية وفي عرفنا السائد، يبدو الأمر مستغرباً، أما في تلك الأزمان فلم يكن هناك ما يدعو للغرابة، والدليل على ذلك أن أعداء الإسلام الذين كانوا يتربصون بالإسلام وبالرسول الكريم الهفوات، لم ينتقدوا زواجه من السيدة عائشة.

والإسلام لم يكن ليتبع الأعراف السائدة، لكن هناك حكمة من زواج السيدة عائشة من الرسول الكريم وهي ما تزال طفلة صغيرة، لقد تربت السيدة عائشة ونشأت في بيت النبوة، تنهل من معينه الصافي وتتهيّأ للدور الذي أوكل إليها في نشر الدعوة.

تمتعت السيدة عائشة بذكاء خارق، وحب للمعرفة، بل كانت لا تدع أمراً إلا سألت فيه، وعرفت كنهه، أحسنت التلقي عن رسول الله ﷺ، فكانت تسأله عن كل ما يستعصي عليها تفسيره. وقال هشام بن عروة عن أبيه: لقد صحبت عائشة، فما رأيت أحداً قط كان أعلم بآيه أنزلت، ولا فريضة، ولا بسنة، ولا بشعر، ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب، ولا بكذا، ولا بكذا، ولا بقضاء، ولا طب، منها، فقلت لها: يا خالة الطب من أين تعلمته،

فقالت: كنت أمرض فينعت لي شيء، ويمرض المريض فينعت له، وأسمع الناس فينعت بعضهم لبعض فأحفظه[١].

كانت السيدة عائشة راوية للحديث، معلمة تتلمذت على يدها الكثيرات من الصحابيات والتابعيات، وكانت مرجعاً للكثير من الصحابة، ولها من الاستدراكات على بعض الصحابة وبعض رواة الحديث الكثير، من ذلك استدراكها على عبد الله بن عمرو، عن عبيد الله بن عمير قال: بلغ عائشة أن عبد الله بن عمرو يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن فقالت: يا عجباً لابن عمرو هذا يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن، أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن، لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ، من إناء واحد ولا أزيد على أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات. (رواه مسلم).

وبحكم نشأتها في بيت النبوة ووضعها كزوجة لرسول الله ﷺ، نقلت إلينا الكثير من سلوك الرسول الكريم ﷺ، والذي هو هدى للمسلمين في حياتهم الزوجية

(١) (المستدرك للحاكم في معرفة الصحابة (٤/ ١١)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٥)، وقال: رواه الطبري ورجاله ثقات) عن نساء حول الرسول ص٩٤، د.بسام محمد حمامي، دار دانية للطباعة والنشر والتوزيع.

وفي معاملة الزوج لزوجاته. وإن كانت السيدة خديجة رضي الله عنها حكيمة متزنة ذات خبرة، تغلب العقل على العاطفة، قادرة على استيعاب الأمور من حولها، تجمعت بها كل صفات الكمال، إلا أن عائشة كانت صغيرة السن، كثيراً ما تتغلب عليها عواطفها، تشعر بالغيرة من زوجات النبي ﷺ، كأي زوجة محبة، وتحتاج لمن يستوعبها ويقدر مشاعرها، فكان الرسول ﷺ، يأخذها باللطف دون أن يؤذي مشاعرها، كما حدث عندما أرسلت زينب بنت جحش صفحة بها طعام إلى الرسول ﷺ، عند عائشة وكان عنده بعض أصحابه، والحادثة كما جاء في الحديث الشريف، عن أنس قال: كان النبي ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي ﷺ في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي ﷺ فلق الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: (غارت أمكم). ثم حبس الخادم حتى أتي بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت. (رواه البخاري).

لقد تفهم ﷺ مشاعرها، فلم يثر عليها، ولم يغضب كما هو متوقع في مثل هذه المواقف.

ومن الصور التي تنقلها لنا السيدة عائشة رضي الله عنها، صورة رسول الله ﷺ وهو يساعد زوجته في شؤون البيت، ويقوم على خدمة نفسه، دون أن ينتظر من أحد خدمته، فعن عائشة رضي الله عنها سئلت: ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل في بيته؟ قالت: كان بشراً من البشر، يفلّي ثوبه، ويحلب شاته ويخدم نفسه. (وفي رواية أخرى: كان يخيط ثوبه ويخصف نعله ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم).

ومن الأدوار الهامة التي كانت تقوم بها عائشة، أن الرسول الكريم ﷺ كان يستعين بها في شرح ما يتعلق بشؤون المرأة.

توفي الرسول ﷺ، وكانت عائشة في الثامنة عشرة من العمر، وبقيت السيدة عائشة رضي الله عنها بعده خمسين عاماً مرجعاً للصحابة والتابعين ومعلمة لنساء المسلمين، توفيت ولها من العمر ثمانية وستون عاماً، تاركة علماً زاخراً مازلنا ننهل منه، وآثاراً عن الرسول الكريم مازال هدى لمن أراد أن يهتدي.

- **السيدة زينب بنت جحش**

أثار زواجها من الرسول الكريم ضجة كبيرة بين المهاجرين والأنصار، إذ كانت مطلقة زيد بن حارثة ربيب

رسول الله ﷺ، وكانت العرب تنسب من تتبناه إليها وتورثه كما تورث أبناءها. وزيد هذا ينتمي إلى قوم من أشراف العرب، سبي صغيراً، فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد، فوهبه لعمته خديجة بنت خويلد، فوهبته خديجة لرسول الله ﷺ، فأعتقه وتبناه، وبعد مدة جاء عمه وأبوه في فدائه، فقال رسول الله ﷺ: خيِّراه، فإن اختاركما فهو لكما دون فداء، فاختار زيد البقاء مع رسول الله ﷺ على عودته إلى عشيرته وعزوته، فخرج النبي إلى الملأ من قريش فأشهدهم أن زيداً ابنه ووارثه، وكان زيدٌ يدعى زيد بن محمد[1]. وكان زيد قد أسلم بعد علي بن أبي طالب، وعندما أصبح شاباً في سن الزواج، وكان ذا علم وحكمة استقاها من أصفى ينابيعها، اختار له النبي ﷺ زينب بنت جحش، وكانت من أشراف قريش، وابنة عمة الرسول ﷺ، فأبت الاقتران به لفارق المكانة الاجتماعية بينهما، إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٦].

---

(١) إعراب القرآن الكريم، محيي الدين الدرويش، ٦/ ١٣٨، ط اليمامة، دار ابن كثير للطباعة والنشر.

رضيت زينب بقضاء الله تعالى ورسوله، وتزوجت من زيد، وفي ذلك تحطيم للفوارق الاجتماعية، فلا فرق بين فرد وآخر إلا بالتقوى والعمل الصالح. والقبول بالأمر الواقع لم يحول التنافر إلى انسجام، وبقي الخلاف بين زينب وزيد قائماً، وكان الرسول الكريم يتدخل لإصلاح ذات البين دون جدوى، حتى جاء الأمر من السماء، بأن يتزوج الرسول الكريم ﷺ من زينب بعد طلاقها من زيد، لكن الرسول الكريم لم يظهر ما أمر به وبقي على موقفه من محاولات الصلح، خشية أن يقول الناس تزوج محمد ﷺ مطلقة متبناه، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٧]. وهنا تظهر الحكمة من زواج الرسول الكريم من زينب مطلقة ربيبه ومتبناه زيد، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٧].

وكانت السيدة زينب رضي الله عنها تفخر بذلك أمام زوجات الرسول ﷺ وتقول: "أنا أكرمكن ولياً، وأكرمكن سفيراً: زوجكن أهلوكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات".

- **جويرية**

سيدة بني المصطلق، أسرت بعد أن هزم قومها، أعتقها الرسول الكريم ﷺ، رحمة منه لعزيز قوم ذل، ثم تزوجها، وأراد بذلك مصاهرة الخزاميين قومها، لعل الله يشرح صدورهم بالإسلام. وبعتق رسول الله جويرية، أعتق المسلمون ما بأيديهم من الأسرى من قومها إكراماً لأصهار رسول الله ﷺ، ومن حديث عائشة رضي الله عنه "قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ، قد تزوج جويرية بنت الحارث، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما بأيديهم. قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها"(١).

- **مارية القبطية**

أرسل الرسول الكريم ﷺ حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى المقوقس ملك القبط، يدعوه فيه إلى دين الإسلام، جاء فيه:

---

(١) تاريخ الطبري، المجلد الثالث ص١١٩، دار الفكر للطباعة والنشر.

بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٤].

قرأ المقوقس الرسالة بعنايه واهتمام، وأملى رده:

"أما بعد: فقد قرأت كتابك وفهمت من ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وكنت أظن أنه يخرج بالشام.. وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم، وبكسوة، ومطية لتركبها، والسلام عليك".

تلقى الرسول الكريم ﷺ كتاب المقوقس وقبل الهدية، واحتفظ بإحدى الجاريتين وتدعى مارية، ووهب أختها لحسان بن ثابت شاعره.

ولدت مارية بنت شمعون، من أب قبطي وأم مسيحية رومية، في قرية من قرى صعيد مصر.

وكانت هي وأختها سيرين في قصر المقوقس ملك القبط، ومن المقربين إليه. كانت مارية الوحيدة من نساء النبي من خارج الجزيرة العربية، وكأنها جاءت لتذكر بهاجر أم إسماعيل جد النبي ﷺ المصرية. وقبل أن ينتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى، أوصى أتباعه بقوم مارية فقال: "استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم فيكم ذمة ورحماً".

بسبب هذا التعدد، اتهم الرسول الكريم بأنه رجل دنيا يبحث عن متعها، فلو كان حقاً يبحث عن المتعة من زواجه لما بقي مع السيدة خديجة التي تكبره بخمسة عشر عاماً قرابة ثمانية وعشرين عاماً دون أن يتزوج إلى أن توفيت، ثم تزوج من السيدة سودة بعد ترملها، ولم تكن أصغر سناً من السيدة خديجة، وهذا رد على من يقول: إن سيطرة السيدة خديجة بمالها ومكانتها الاجتماعية هو ما منع الرسول الكريم من الزواج بأخرى في أثناء حياتها.

- **أثر الاقتداء بالرسول الكريم ﷺ على المجتمع**

قال الله عز وجل في كتابه الحكيم: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٢/٣٦]، وفي سورة الملك يقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي

خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٦٧/ ١-٢]. أي إن الدنيا ما هي إلا اختبار، وما متع الحياة الدنيا إلا من أجل الإعانة على الصبر والتخفيف من مشاق الدنيا. فلكل إنسان دور خلق من أجله، عليه أن يؤديه على أكمل وجه، والفرد المسلم لا ينفصل عن مجتمعه، عن النبي ﷺ قال: "المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً" (رواه: البخاري). فالمسؤولية تمتد إلى أن يصبح للفرد دور في مجتمعه، فلا يترك أيتاماً دون راعٍ، ولا أرملة دون أن تجد من يأخذ بيدها، كما كان يحدث في صدر الإسلام، فالتعدد لم يكن من أجل غايات شخصية، بل كان على الغالب من أجل مرضاة الله، والسير على هدى رسوله الكريم، وهناك من علماء المسلمين من تتلمذ على يد زوج أمه بعد وفاة والده.

الخاتمة

لو تتبعنا الإسلام عبر التاريخ، لوجدنا أنه كلما ابتعدت بنا الأزمان عن صدر الإسلام ابتعد المسلمون عن جوهر الإسلام، وتراجع موقع المرأة في المجتمعات الإسلامية، وبعد أن كانت مشاركة للرجل في جميع مناحي الحياة، انزوت في مكان مظلم من منزلها، وأصبحت مواطنة من الدرجه الثانية أو حتى الثالثة.

وبشكل عام، نصل إلى خلاصة؛ وهي أن على المرأة أن تتمتع بالوعي الكافي الذي تستطيع من خلاله معرفة حقوقها والحفاظ عليها، دون أن تقع في الفخ فتظلم وتستغل من حيث لا تدري، كخدعة الجمال التي استغلت المرأة من خلالها، أو خدعة المساواة بالجنس الآخر التي كرست دونية المرأة، وحررت الرجل من الكثير من مسؤولياته اتجاه أسرته، أو أن تقمع ويفرض عليها التخلف باسم الدين.